كتاب شرح صلاة القطب
ابن مشيش

سلسلات نورانية فريدة

من تأليف

سيدي أحمد بنعجيبة

رضي الله عنه

جمع وتقديم

العمراني الخالدي عبد السلام

دار الحديثة الدار البيضاء

دار الرشاد الحديثة

الدار البيضاء المغرب

كتاب شرح صلاة القطب
ابن مشيش

سلسلات نورانية فريدة

من تأليف

سيدي أحمد بنعجيبة

رضي الله عنه

السلسلة الأولى

١ ـ شرح صلاة القطب بن مشيش رضي الله عنه

٢ ـ شرح صلاة ابن العربي الحاتمي رضي الله عنه

٣ ـ سلك الدرر، في ذكر القضاء والقدر

جمع وتقديم

العمراني الخالدي عبد السلام

دار الحديثة الدار البيضاء

دار الرشاد الحديثة

الدار البيضاء ـ المغرب

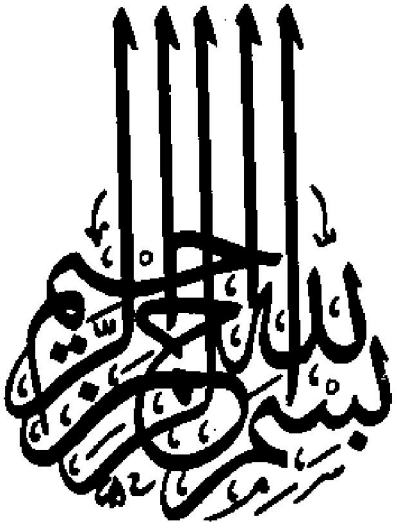
بسم الله الرحمن الرحيم

تَعْرِيفُ سَيِّدِي أَحْمَد بنعَجِيبَةَ
رَضِيَ الله عَنْهُ

لِجَامِعِ مُؤَلَّفَاتِهِ، وَخَدِيمِ الطَّرِيقَةِ الْعَجِيبِيَّةِ الرَّشِيدةِ: الْعِمْرَاني الْخَالِدِي عَبْد السَّلام.

ـ الْحَمْدُ لله الْعَلِيمِ الْغَفَّارِ، ذِي الطَّوْلِ الْوَاسِعِ وَالنِّعَمِ الْغِزَارِ، والصَّلاَةُ والسَّلاَمُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نُورِ الأَنْوَارِ، وَسِرِّ الأَسْرَارِ، وَعَلَى آلِهِ الأَطْهَارِ، وَصَحَابَتِهِ الأَبْرَارِ. وَبَعْدُ:

فَإِنَّ سَيِّدِي أَحْمَد بِنعَجِيبَةَ الْحَسَنِي ـ رَضِيَ الله عَنْهُ وأَرْضَاهُ ـ عَارِفٌ كَبِيرٌ بِرَبِّهِ. مُتَضَلِّعٌ في عُلُومِ الْقَوْمِ. حَائِزٌ قَصَبَ السَّبْقِ فِي عُلُومِ الشَّرِيعَةِ وَالطَّرِيقَةِ والْحَقِيقَةِ. لا يَحْتَاجُ إِلَى تَعْرِيفٍ، فَقَدْ طَلَعَ نَجْمُهُ عَلَى الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ. وَوُضِعَتْ حَوْلَهُ أُطْرُوحَاتٌ، عَالِمٌ مَغْرِبِيٌّ كَبِيرٌ، وَصُوفِيٌّ ذُوْقِيٌّ شَهِيرٌ. أَشْهَرُهُ عِلْمُهُ ومَؤَلَّفَاتُهُ النَّادِرَةُ، الَّتِي فَاقَتِ الثَّلاَثِينَ، فِي الشَّرِيعَةِ والْحَقِيقَةِ. فَكِتَابُهُ: «إِيقَاظُ الْهِمَمِ، فِي شَرْحِ الْحِكَمِ، والْفُتُوحَاتُ الإِلَهِيَّة، فِي شَرْحِ الْمَبَاحِثِ الأَصْلِيَّة» الْمَطْبُوعُ في دَارِ المعرفةِ، وَفِي بَعْضِ مَطَابِعِ مِصْر ـ مُنْذُ عَشَرَاتِ السِّنِينَ، فَقَدْ عَرَّفَهُ، وَكَذَلِكَ مَنْ عَثَرَ عَلَى فهرسه، أَوْ بَعْضِ كُتُبِهِ، الَّتِي عَلَى رَأْسِهَا: «الْبَحْرُ الْمَدِيدُ، فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ» بالْعِبَارَةِ والإِشَارَةِ. أَيْ بالظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ وَبَاطِنِ الْبَاطِنِ ـ يُدْرِكُ مَنْ هُوَ سَيِّدِي أَحْمَد بنعجِيبَة، الَّذِي تَضَاءَلَتِ الْفُهُومُ أَمَامَ فهُومِهِ، وَتَقَاصَرَتِ الْجُهُودُ أَمَامَ جُهُودِهِ. فَسَيِّدِي أَحْمَد بنعجِيبَة، فَرِيدُ عَصْرِهِ وأَوَانِهِ. انْحَدَرَ مِنْ عَائِلَةٍ نُورَانِيَّةٍ، صَالِحَةٍ مُصْلِحَةٍ، أَفْرَادُهَا ـ ذُكُوراً وَإِنَاثاً، نَابِعُونَ بِالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ، والذَّوقِ والْهِمَّةِ. وَلاَ تَزَالُ فِيهِمْ هَذِهِ الصِّبْغَةُ. فَهُوَ سَيِّدِي أَحْمَد بْن سَيِّدِي مُحَمَّدِ بْنِ سَيِّدِي الْمَهْدِي بْنِ سَيِّدِي الْحُسَيْن، بْنِ سَيِّدِي مُحَمَّدِ بنعجِيبَة الْحَجُوجِي، بنِ سَيِّدِي عَبْدِ الله بنعَجِيبَة. ثُمَّ إِلَى سَيِّدِي سَحْنُونَ، بْنِ مَوْلاَيَ إِبْرَاهِيمَ، بْنِ مَوْلاَيَ مُحَمَّد، بْنِ مَوْلاَيَ مُوسَى، بْن مَوْلاَيَ عَبْدِ الله، ثُمَّ إِلَى مَوْلاَيَ إِدْرِيس الأَصْغَرِ، ابْنِ مَوْلاَيَ إِدْرِيس الأَكْبَرِ. هَكَذَا هُوَ في فهرسه. أَمَّا عَنْ تَعَبُّدِهِ، فَقَدْ أَلْهَمَهُ اللَّه الْخَلْوَةَ والْوَحْدَةَ وَهُوَ صَغِيرٌ.

فَقَدْ قَالَ في فهرسه: «فكُنْتُ لا أَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ، ولا أَلْتَفِتُ إِلَيْهِمْ. فَقَدْ أَلْقَى الله في قَلْبِي مَحَبَّةَ الْعِلْمِ في حَالِ الصِّبَا».

ثُمَّ قَالَ بَعْدَ كَلام: «فَلَمَّا حَفِظْتُ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ، سَافَرْتُ لِتَحْقِيقِ الْقِرَاءَة. وتَعْلِيمِ التَّوْحِيدِ». وَقَدْ دَرَسَ رَضِيَ الله عَنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ، عَلَى عُلَمَاءَ أَجِلاَّءَ، مُبَرَّزِينَ في الْعِلْم، وَلَهُ ثَلاَثُ إِجازَاتٍ في فهرسه، مِنْ عُلَمَاءِ أَكَابِرِ عَصْرِهِ. الإِجَازَةُ الأُولَى، لِلْعَلاَّمَةِ شَيْخِ الْجَمَاعَةِ بِالْمَغْرِب، سَيِّدِي التَّاوْدِي بْنِ سُودَةَ. والثَّانِيَّةُ، لِلْعَلاَّمَةِ، سَيِّدِي مُحَمَّد بِنِّيس الْفَاسِي. والثَّالِثَةُ، لِلْعَلاَّمَةِ سَيِّدِي مُحَمَّد الْوَرْزَازِي. وكُلُّهُمْ في إِجازَاتِهِمْ، أَعْرَبُوا أَنَّ الْمُجَازَ فَوْقَهُمْ في الْعِلْم، وإِنَّمَا جَرَتْ عَادَةُ الشُيُوخ. إِجَازَةَ الْمُتَخَرِّجِينَ عَلَى أَيْدِيهِمْ. وبَعْدَمَا انْفَرَدَ بِعُلُومِ الظَّاهِرِ، انْتَقَلَ لِلتَّجْرِيدِ إِلَى الْعَمَلِ والتَّجَرُّدِ لِلْعِبَادَةِ. اسْتِعْدَاداً لِعِلْمِ الْبَاطِنِ. وَهُوَ الْعَمَلُ بِالشَّرِيعَةِ الْظَاهِرَةِ. إِذْ لاَ يَنْتَقِلُ الْعَمَلُ إِلَى البَوَاطِنِ، حَتَّى تَسْتَقِيمَ الظَّوَاهِرُ. إِذِ الشَّرِيعَةُ بَابٌ، والْحَقِيقَةُ أَبْوَابٌ. وَقَدْ أَخَذَ رَضِيَ الله عَنْهُ عِلْمَ الذَّوْقِ عَنْ شَيْخِهُ المربي الكَبير، الْقُطْب سَيِّدِي مُحَمَّد الْبُوزَيْدي الحسني رَضِيَ الله عَنْهُ. وَشَهِدَ لَهُ بِالْمَقَامِ الأَسْنَى، فِي الْعُلُوم والْفُهُوم، شَيْخُهُ، وَشَيْخُ شَيْخِهِ، مَوْلاَيَ الْعَرَبِيِّ الدَّرْقَاوِي الْحَسَنِي. وَقَدْ فَاقَهُمَا عِلْماً وَذَوْقاً وَكَشْفاً. قَالَ في فهرسه: «أَمَّا عِلْمُ الْبَاطِنِ، فَهُوَ عِلْمي وَمَحَطُّ قَدَمِي، وَلِي فِيهِ الْبَاعُ الطَّوِيلُ». وَقَدْ جَدَّدَ طَرِيقَ الْقَوْمِ، في الْقَرْنِ الثَّاني عَشَرَ الْهِجْرِي. عَلَى دعَائِمَ قُدْسِيَّةٍ، دُونَ الْتِفَاتٍ لِغَيْرِهِ، وَطَبَعَهَا بِقَوْلِهِ: «وَهَذَا ذَوْقِي لا أُقَلِّدُ فِيهِ أَحَداً». وَذَلِكَ لَمَّا حَقَّقَ مَقَامَاتِ الْيَقِينِ كُلَّهَا، ذَوْقاً ومُشَاهَدَةً ومُعَايَنَةً. وَلَهُ قَصَائِدُ صُوفِيَّةٌ فَرِيدَةٌ. في آدَابِ الصُوفِيَّةِ، والْخَمْرَةِ الأَزَلِيَّةِ. وفِي تَفْسِيرِ أَطْوَارِ الرُوحِ والنَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، وَفِي الْحَضْرَةِ النَبَوِيَّةِ. ثُمَّ فِي الْحَضْرَةِ الرَّبَّانِيَّة. إِضَافَةً إِلى مُؤَلَّفَاتِهِ الْعَدِيدَةِ. في الْشَّرِيعَةِ والْحَقِيقَةِ. كَمَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ الإِشَارَةَ. وتُوُفِّيَ رَضِيَ الله عَنْهُ عَامَ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ وَمَائَتَيْنِ وأَلْفٍ هِجْرِيَّة. «1225» عَنْ عُمُرٍ يُنَاهِزُ الثَّالِثَةَ والسِّتِّينَ عَلَى الْمَشْهُورِ ـ حَقَّقَنَا الله تَعَالَى بِعُلُومِهِ وَفُهُومِهِ. وَجَعَلَنَا عَلَى هَدْيِهِ وآثَارِهِ. آمِين. وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ. العرائش في 12 شوال عام 1414 هجرية. الموافق د: 23 مارس سنة: 1994 ميلادية.

جَامِعُهُ ومُصَحِّحُهُ:
الْعِمْرَانِي الخَالِدِي عَبْدُ السَّلاَم
ـ لَطَفَ الله بِهِ عَلَى الدَّوَامِ ـ

المقدّمة

تعريف بسيدي أحمد بنعجيبة

تَعْرِيفٌ بالْقُطْبِ الْكَامِلِ الأَنْوارِ، فِي الْعُلُومِ والأَذْواقِ والأَسْرَارِ، أَبِي العبَّاس سيّدي أحْمَد بن محمَّد بنعجيبة الحَسَنِي الأَغَر

بسم الله الرحمن الرحيم

والصَّلاةُ والسَّلامُ على مَوْلانَا المُصْطَفىٰ الْكَرِيم،
وَعَلى آلِهِ وصَحَابَتِهِ وأَهْلِ عِترَتِهِ الْمنَعَّمِينَ أجْمَعِين

وبَعْدُ: فَقَدْ وَفَّقَنِي اللَّهُ تَعَالىٰ بِمَحْضِ الْمِنَّةِ، وَسَاقَنِي مُنْذُ عشرينَ سَنَةً، إلى صُحْبَةِ أكَابِرِ بَنِي عَجِيبَة، ذَوِي الْهِمَمِ الْعَالِيَةِ، في الْعُلُومِ الذَّوْقِيَّةِ اللَّدُنِيَّة، بالإضَافَةِ إلى كَافَّةِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ، وَجَمَعْتُ مِنْ جِهَاتٍ مِتعَدِّدَةٍ، مِنْ مُؤَلِفَاتِ سَيِّدِي أحْمَد بنعجيبة، سِتَّةً وعِشْرِينَ مَا بَيْنَ شَرِيعَةٍ وَحَقِيقَةٍ، كلّها نَسَخْتُهَا بِيَدِي في نَحْوِ سِنِينَ عَشَرَةٍ، وشُرِّفْتُ بِأَمْرٍ مِنْ شَيْخِي ـ فَرِيد زَمَانِهِ، سَيِّدِي عَبْد الْقَادِر بنعجيبة، وشقيقه الْعَالِم الْجَلِيل، والصُّوفي الكَبِير، سَيِّدي محمَّد بنعجيبة ـ بِتَقْدِيم وَطَبْعِ شَرْحِ الصَّلاةِ المَشِيشِيَّة، لِجَدِّهِمَا الْعَارِف سيّدي أحْمَد بنعجيبة، رَضِيَ الله عَنْهُمْ أجْمَعِين، وتمَّتِ الطَّبْعَةُ الأُولى عام 1402هـ ـ 1982م.

واليَوْم، وقَدْ جَاءَ دَوْرُ طَبْعِ سِلْسِلاتٍ مُنَوِّرةٍ، مِنْ مُؤَلَّفَاتِ هذَا الْعَارِف الأكْبَرِ، يَتْلُوهَا طَبْعُ الْبَحْرِ الْمَدِيدِ، فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، بِإِشَارَةٍ وإذْنٍ مِنْ شَيْخِي الْمُنَوِّرِ، سَيِّدِي عَبْد الْقَادِر بنعجيبة، لِنُخْبَةٍ طَيِّبَةٍ صَالِحَةٍ، وَجَرْياً عَلَىٰ الْعَادَةِ الْمُتَّبَعَةِ، فِي التَّعْرِيفِ بِالْكُتُبِ النَّفِيسَةِ المَخْطُوطَةِ، وأصْحَابِهَا الْكُمَّال العَبَاقِرَةِ، فَقَدْ كُلِّفْتُ بِوَضْعِ تَعْرِيفٍ شَامِلٍ لِمُؤَلَّفَاتِ سَيِّدِي أحْمَد بنعجيبة، لِيَتَعَرَّف النَّاسُ عَلَيْهَا وَعَلَىٰ صَاحِبِهَا، ولِيَشْرَبُوا مِنْ فَيْضِهَا، لِيَحْصُلَ بِهَا الانْتِفَاعُ، ويتِمَّ بِهَا الاتِّبَاعُ، وسَيَجِدُ الْقَارِئُ الْكَرِيمُ، هٰذَا التَّعْرِيفَ مُصَدَّراً بِهِ السِّلْسِلاَت النورانيَّة الْعَجِيبِيَّة، وتَفْسِيرَ الْبَحْرِ الْمَدِيدِ الْمُتِمِّ الأُمْنِيَةِ. وَجَاءَ تَكْلِيفِي بِهٰذِهِ الْمُهِمَّةِ، مِنْ أُمُورٍ عِدَّةٍ:

1 - لِكَوْنِي أَعْرَفَ النَّاسِ بِمُؤَلَّفَاتِهِ وعُلُومِهِ الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَةِ.

2 - لِلإِذْنِ الَّذِي لِي فِي جَمْعِهَا ونَسْخِهَا ونَشْرِهَا شَفَوِيًّا مِنْ شَيْخِي، وَمِنْ صَاحِبِهَا فِي عِدَّةِ رُأى صَادِقَةٍ.

3 - لِكَوْنِ نُسَخِهَا المُسْتَوْعِبَةِ لِفُنُونِهَا بِخَطِّ يَدِي وبِخَزَانَتِي مُتَوَفِّرة.

4 - وَلاعْتِبَارَاتٍ أُخْرَىٰ تَرَكْتُهَا هُنَا تَوَاضُعاً لِلَّهِ تَعَالَىٰ. وإِنَّ سَيِّدي أَحْمَد بنعجيبة، كَالشَّمْسِ الْمُشْرِقَةِ، تَعْرِفُهُ الْمَشَارِقَةُ والْمَغَارِبَةُ، لا يَحْتَاجُ إِلَى تَعْرِيفٍ، وَلاَ إِلَىٰ تَقْدِيمٍ، فَقَدْ أَشْهَرَهُ كِتَابُهُ النَّفِيس: «**إِيقَاظُ الْهِمَمِ، فِي شَرْحِ الحِكَمِ، والْفُتُوحَاتِ الإِلَهِيَّةِ، فِي شَرْحِ المَبَاحِثِ الأَصْلِيَّةِ**»، المطبُوع فِي مِصْر، وَفِي لُبْنَان، مُنْذُ مَا يَقْرُبُ مِنْ مَائَةِ سَنَةٍ، ويُجَدَّد طَبْعُهُ كُلَّمَا نَفَدَ. ومَعَ هٰذَا، فَهُنَاكَ جَوَانِبُ لاَ بُدَّ مِنْ مَعْرِفَتِهَا، فَلْيَعْلَم الْقَارِىءُ الْكَرِيمُ، أَنَّ الْعَارِفَ الْمُحَقِّقَ، سيِّدي أحمد بنعجيبة، قَدِ انْحَدَرَ مِنْ عَائِلَةٍ، نَابِعَةٍ بِالْعُلُومِ والْحِكَمَةِ، كَبِيرِهَا وَصَغِيرِهَا، ذَكَرِهَا وأُنْثَاهَا، مُنْذُ قُرُونٍ مُتَتَابِعَةٍ، وَلاَ زَالَ هٰذَا الْفَيْضُ الإِلَهِي بِهَا وَفِي أَتْبَاعِهَا، فَهُوَ سَيِّدِي أَحْمَد، بن سَيِّدِي مُحَمَّد بن سيِّدي المَهْدِي، بن سَيِّدِي الحُسَيْن بن محمَّد بنعجيبة الْحَجُوجِي، بْنِ سَيِّدِي عَبْد اللَّهِ بنعجِيبَة الَّذِي اسْتَقَرَّ بِخَمِيسِ أَنْجَرَةَ، ثُمَّ إِلَى سَيِّدِي سَحْنُون، بن مَوْلاَي إِبْرَاهِيم، بْن مَوْلاَيَ مُوسىٰ، بْن مَوْلاَي عَبْد الله، ثُمَّ إِلَى مَوْلاي إِدْرِيس الأَصْغَرِ، بن مَوْلاَيَ إِدْرِيس الأَكْبَرِ.

وكَانَ لأَجْدَادِهِ كَرَامَاتٌ وَخَوارِقُ عِدَّة، وَكَانَ مِنْ بَيْنِهِم مَنْ هُوَ فِي الْغَوْثَانِية، كسيدتنا فَاطِمَة العجيبيَّة، وَمِنْ مَشَاهِير أَجْدَادِهِ، فَاطِمَةُ العَجِيبية، وسَيِّدي عَبْد الله مغراوي، وسيدي الحسن الحَجُوجي، وَقَدْ فَاقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَجْدَادَهُ فِي الْكَرَامَاتِ والْمُكَاشَفَاتِ، وأَكْبَرُ كَرَامَاتِهِ، الْفَهْمُ الْكَبِيرُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ بالإِشَارَةِ، عَلَىٰ مُسْتَوَىٰ عَالٍ فِي الْمَعْرِفَةِ، وَشَرَحَ مَعَهُ الْحُرُوفَ الْمُقَطَّعَةِ، الَّتِي أَفْتَتَحَ الله تَعَالَىٰ بِهَا بَعْضَ السُّوَرِ الْقُرْآنِيَّةِ. ويَكْفِي قَوْلُهُ فِي فَهْرِسِهِ. أَمَّا عِلْمُ الْبَاطِنِ فَهُوَ عِلْمِي، وَمَحَطُّ قَدَمِي، وَلِي فِيهِ الْبَاعُ الطَّوِيلُ. فَلَمْ يُقَلِّدْ فِي الذَّوْقِ أَحَداً مِنَ السَّابِقِينَ، بَلْ كَانَ يَغْرِفُ فِيهِ بِمِغْرَافِ الْحَقِّ تَعَالَىٰ. وَقَدْ تَحَدَّثَ طَوِيلاً عَنِ التَّرْبِيَةِ النَّبَوِيَّةِ الذَّوْقِيَّة، وَقَالَ: وَهٰذَا ذَوْقِي، لاَ أُقَلِّدُ فِيهِ أَحَداً. فَقَدْ كَانَتْ لَهُ مَصَادِرُ يَكْرَعُ مِنْهَا الْعُلُومِ والْفُهُوم إِلَى حَدٍّ بَعِيدٍ أَجْمِلُهَا فِي تَلَقِّيهِ الْعُلُومَ عَنِ الْكِبَارِ، وصُحْبَة شَيْخِهِ الْبُوزِيدي صَاحِبِ الأَسْرَار. وَبِذَلِكَ تَرَقَّتْ فِيهِ الْفِرَاسَةُ والإِلْهَامُ، والرُّؤْيَا الصَّادِقَة النَّابِعَة مِنْ وَحْيِ الإِعْلام، فَزَالَ عَنْ بَصِيرَتِهِ الْغِشَاءُ، وفَهِمَ عَنِ اللَّهِ جُلَّ الأَشْيَاءِ. وَقَدْ نَهَجَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي تَفْسِيرِ القرْآنِ الْكَرِيمِ، نَهْجاً دَقِيقاً، لَمْ يَصِلْهُ الْقُشَيْرِي فِي رِسَالَتِهِ،

وَلاَ صَاحِب الْفُتُوحات المكيّة، وَلاَ صَاحِبُ التَّأويلاَت، ولا صَاحِبُ رُوح المَعَانِي، وَلاَ الطَّبَرِي في تَفْسِيرِهِ، وَلاَ غَيْرهم مِمَّنْ تَكَلَّمَ في عِلْم الإشَارَةِ. فَقَدْ فَسَّرَ الْقُرْآنَ العَظِيمَ كُلَّهُ بِالْعِبَارَةِ والإشَارَةِ، في مُجَلَّدَاتٍ أربَعَةٍ، سَمَّاهُ بـ«**الْبَحْرِ الْمَدِيدِ، فِي تَفْسِيرِ الْقُرآنِ الْمَجِيدِ**» وَجَعَلَ لِلْفَاتِحَةِ شَرْحاً مُسْتَفِيضاً مُسْتَقِلاً، سَمَّاهُ كَذَلِكَ، بِالْبَحْرِ الْمَدِيدِ، وَقَدْ بَلَغَتْ مُؤَلَّفَاتُهُ فِي الشَّرِيعَةِ والحَقِيقَةِ، سِتَّةً وَثَلاَثِينَ، يَتَطَلَّعُهَا الْبَحْرُ المَدِيدُ، في تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وتَفْسِيرُ الْفَاتِحَة الْكَبِير، وشَرْحُ الْحِكَمِ العَطائية، والْفُتُوحَاتُ الإلَهِيَّةُ، فِي شَرْحِ الْمَبَاحِثِ الأصْلِيَّةِ، والْفُتُوحَاتُ الْقُدُّوسِيَّةُ، فِي شَرْحِ الْمُقَدِّمَةِ الأجرُومية، بِالنَّحْوِ والإشَارَةِ، والأَنْوَارُ السَّنِيَّة، في شَرْحِ الصَّلاَةِ المَشِيشِيَّةِ، والجَامِعُ الصَّغِيرُ في الْفِقهِ، وتَسْهِيل الْمَدْخَل، لِتَنْمِيَةِ الأَعْمَالِ، بِالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ عِنْدَ الإقْبَالِ، وَمِعْرَاجُ التشوُّفِ إلَى حَقَائِق التَّصوُّفِ، وَسِلْكُ الدُّرَرِ، فِي ذِكْرِ الْقَضَاءِ والْقَدَرِ، وشَرْحُ صَلاَةِ ابْن الْعَرَبِي الحَاتِمِي، والأبْيَاتُ الثَّلاثَةُ الْمَنْسُوبَةُ لِلْجُنَيْدِ: «تَوَضَّأْ بِمَاءِ الْغَيْبِ إنْ كُنْتَ ذَا سِرٍّ» إلى آخرها. وشَرْحُ قَصِيدَةِ الرِّفَاعِي: «يَا مَنْ تَعَاظَمَ حَتَّىٰ رَقَّ مَعْنَاهُ» إلى آخرها. وشَرْحُ نُونِيَةِ الشُّشْتَرِي، وبَعْضُ مُقَطَّعَاتِهِ الْمُنَوَّرَة، والأَنْوَارُ السَّنِيَّةُ، في الأَذْكَارِ النَّبَوِيَّة، وشَرْحُ خَمْرِيَّةِ ابْنِ الْفَارِض، وتَائِيَةُ شَيْخِهِ سَيِّدِي محمَّد الْبُوزَيْدي، وشَرْحُ تَائِيَةِ الْقُطْب الْفَرْدِ، سَيِّدِي عَلِي الجَعيدي، ونُبْذَةٌ مِنْ مَنَاقِبِ الزُّهَّادِ السَّبْعَةِ، وَكَشْفُ النِّقَابِ عَنْ سِرِّ لُبِّ الأَلْبَابِ، وشَرْحٌ فِي ذَمِّ الْغِيبَةِ والنَّمِيمَةِ، وشَرْحُ الوظِيفَةِ الزَّرُّوقِيَّة، وشَرْحُ الْهَمْزِية والبُرْدة، وأَزْهَارُ الْبُسْتَانِ، فِي طبَقَات الأَعْيان، لِعُلَمَاءِ الظَّاهِر، ثُمَّ لِعُلَمَاءِ الْبَاطِنِ، وفَهْرسُهُ الَّذِي بِهِ حَيَاتُهُ وأَعْمَاله ومَوَاهِبُهُ.

أَخَذَ طَرِيقَ التَّصَوُّف، عَنِ الْقُطْبِ الْكَبِير الْوَاصِل، الْمُرَبِّي، سَيِّدِي محمَّد الْبُوزَيْدِي الحَسَنِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعَاشَرَ شَيْخَ الْمَشَايِخ، مَوْلاَي الْعَرَبِي الدَّرقَاوِي. وَكَانَ لَهُ دَارَانِ عَامِرَتَانِ، دَارٌ ببَنِي سَعِيدٍ، وَدَارٌ بِالزَّمِّيجِ بِالْنَجرَة، وَكَانَ لَهُ فقراءُ في المشرقِ والْمَغْرِبِ، ظَهَرَ فِيهِم سِرُّهُ. وَهُوَ دَفِينُ قَرْيَة الزَّمِيجِ، تُوُفِّيَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَامَ خَمْسَةٍ وعِشْرِينَ ومائَتَيْنِ وألْفٍ هِجْرِيَّة، هكذا «1225». نَفَعَنَا اللَّهُ تَعَالَىٰ بِعُلُومِهِ وأَذْوَاقِهِ، آمِين، والحَمْدُ لِلَّهِ ربِّ الْعَالَمِين، وصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّمَ تَسْلِيماً.

«العرائش في يوم الأحد 26 محرَّم الحرام، عام 1414 هجرية»
الموافق لـ18 يوليوز سنة 1993 ميلادية لجامعه ومصحّحه ومقدّمه
العمراني الخالدي عبد السَّلام لطف الله به على الدوام

شرح صلاة القطب ابن مشيش
رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

وصَلَّىٰ اللَّهُ عَلَىٰ سَيّدنا مُحَمَّد وَآلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّم تَسْلِيماً

قَالَ الشَّيْخُ الإمَامُ، العَالِمُ العلاَّمة، الوليّ الصَّالح، العارف الربَّاني: سيّدي أحمد بن محمّد بنعجيبة الحَسَني رَضِيَ الله عَنْهُ، ونَفَعَنَا بِهِ آمين.

نَحْمَدُكَ يَا مَنْ تَجلَّىٰ لِقُلوب أوليائِهِ، بِكَمالِ جَمَالِهِ وَبَهَائِهِ. فَتَنَزَّهَتْ فِي رِيَاضِ مَلَكُوتِهِ الأفْكَارُ. ونشكرك يَا مَنْ تولَّى أسْرَارَ أنبيائِهِ وأصْفِيَائِهِ، فخاضَتْ فِي بِحَارِ جَبَرُوتِهِ الأسْرَارُ. ونصَلِّي ونُسَلِّم عَلى بَذْرَةِ الْوُجُودِ، ومَطلع شَمْسِ السُّعُودِ. سيِّدنا ومَوْلانَا محمَّد، الَّذي من سرِّ ناسُوتِهِ انشقَّت الأسرار. ومن لاهُوتِ صِفَاتِهِ؛ انفَلَقَتِ الأنْوَارُ. صَلاةً وسَلاماً يَلِقيانِ بِمَا لَهُ مِنْ عَظِيمِ جَاهٍ ومِقدارٍ. وَرَضِيَ الله تَعَالىٰ عَنْ أصْحَابِهِ الأبْرَارِ. وأَهْل بَيْتِهِ الأطْهَار.

وَبَعْدُ: فَهٰذَا شَرْحٌ لَطِيفٌ، عَلَىٰ تَصْلية القطبِ الجامع، سيدي عبد السَّلام بن مشيش نَفَعَنا اللَّهُ بِذِكْرِهِ. وأفاضَ عَلَيْنا مِن صيب فيضه آمين. نَدَبني إليه شيخنا العارف، الربَّاني، قدوة السائرينَ. ومُربِّي الواصلين، سيّدي محمَّد بن أحمد البوزيدي الحسني. فأجَبْتُهُ إلَى ذلِكَ. رَجَاءَ التحقيق بِمَحَبَّتِهِ، والشُّرب مِنْ فَيْضِ مَدَدِهِ. ولْنقدِّمْ بَيْنَ يدي الكلام، ترْجمة الشَّيْخ. وَذِكْر شَيْءٍ مِنْ كَلاَمِهِ.

1 - الطبيعة. 2 - علم اللاَّهوتِ، عن الحقائق المتعلقة بالله تعالى. والله هويتي: العالِمُ بالحقائقِ المتعلقة بالله تعالى.

أما ترجمتهُ: فهو الشيخ الإمام، العارف الواصل، الولي الكبير، والقطب الشهير، شمس زمانِهِ، وفريد عصره وأوانِهِ. سيِّدنا ومولانا عبد السلام بن مشيش بالميم. وربما قيل بالباء. وإبْدَالُ البَاءِ بالميم، لغة مازنية، ومَعْناهُ الخَادم الخفيف؛ الحاذق اللبيب، ابن أبي بَكْر بن علي، بن حُرْمَة، بن عيسى، بن سلام، بن

مِزْوار. ومعْناه بلغة البَرْبر، بكر أبيه. ويستعمل في رئيس القوم، بن علي بن حيْدَرَة. وهو في الأصل، اسم الأسد، بن محمد بن إدريس الأزهر، بن إدريس الأكبر، بن عبد الله الكامل، بن الحسن المثنَّى، بن الحسن السبطي، بن علي كرَّم الله وَجْهَهُ، رضِيَ الله عَنْهُمْ أجْمَعِين. توفي رضي الله عنه شهيداً سنة 622هـ، أو فيما بعده بقليل. قال ابن خَلْدُون: قتَلَهُ في جَبَلِ العَلَم قَوْم، بَعَثهم لِقَتلهِ، ابن أبي الطواجِنِ الكتامي الساحر، المدَّعي النبوَّة. وبسَبَبِ هذه الدَّعوة، زَحَفَتْ إليه عَسَاكر سبْتة. وكَان عند بني سعيد فقتل. ثم قلت: أخْبَرني مَنْ أثقُ بِهِ من بني سعيدٍ، أنَّهُ قتلهُ شابٌّ مِنْهُمْ، وذلكَ أنَّ الظالمَ كَانَ فَاسِقاً. يتعمَّد بَنَاتِ النَّاس كرْهاً، فتزيَّا شاب بِزَيّ النِّسَاءِ، فلمَّا اختلطَ بِهِ فِي خَلْوَتِهِ قَتَلَهُ؛ لأنَّ الظَّالِمَ كَانَ أرَادَ أن يَدْخُلَ بِأُخْتِهِ، فتزيَّا بِزيّ النِّساءِ وأُهْديَ لَهُ، عَلَى أنَّهُ بِنْتٌ. فَقَتَلَهُ بِخُنْجَارٍ. وَكَانَتْ وَفَاته سَنَة خمسٍ وعشرين وستمائة 625هـ، أي القطب ابن مشيش، على قَوْلِ ابن خلدون. وَدُفِنَ رَضِي الله عَنْهُ، في قمَّةِ الجَبَلِ، المُسَمَّى بالعلم. قَالَ فِي المِيرَاثِ: وَآثاره هُنَا كثيرة، من مغارة للخَلْوَةِ والعبادة، ومسجده، جُدرانه قصيرة، ومَوْضع لارْتقابِ الْفَجْر، وتحت ضَرِيحهِ بِنحْوِ الْمِيل، عيْن كَان يتوضَّأ فيها، ومقتلهُ فَوْقَهَا بِقريبٍ يُقالُ: إنَّهُ توضَّأ فيهَا عِنْدَ الفَجْر. وقَصَدَ الصُّعُود لمَحلِّ العِبَادَة، وارْتقاب الْفَجْرِ، فَقَتَلُوهُ هُناك. ومِنَ الشَّائِع، أنَّه ألقي عليهم الضباب الكثيف، ودُفِعُوا إلى شَواهِقِ الجِبَالِ. فَتردوا مِنْهَا في مَهَاوٍ سحيقة. فمُزِّقوا كلَّ مُمزَّقٍ. ولَمْ يَرْجع مِنهم مُخبر، وتَحْت هٰذه العين، بمسافة أخرى، رسوم داره التي كان يسْكنُها. قلْتُ: وقد وصَلْتُهَا، وصلَّيْتُ فِي أثرِ مَسْجِدِه، قُرْب العَيْن الَّتي يُسمُّونَهَا عيْن القشور عن يمينها، ولا سَاكِن هناك اليوم، وإنَّما العُمْران في سَفْح الجبل، دائراً بِهِ، في مداشر وعُمْران، يسكنها أهْل هذا النَّسَبِ الشريف، ومعهم غَيْرهم. وكانَ لَهُ مِنَ الأوْلادِ أرْبَعَةٌ. محمَّدٌ، وأحْمَدُ، وَعَبْدُ الصَّمَدِ، وعلاَّل. ومن بني ولده محمد: بنو عبد الوهَّاب، وطائفة يسمّون الرَّحمونيين، بقرْبِ شفشاون. ومن وَلَده علاَّل أولاد الفِجْفج، مِنْهُمْ فرقة بمرَّاكش.

ولَهُ أخَوَانِ: مُوسَىٰ ويمْلاح. ومن بني موسَىٰ: الشفشاويّون القاطنون بفاس. ومن بني يمْلاَح: سيّدي عبد الله بن إبراهيم، نزيل وزَّان. ولَهُ مِنَ الأعمام ستَّةٌ: يُونس، وعليّ، وملهى، وميمون، والفتوح، والحاج. ومن أولادِ يُونُسَ: أولاد بن رئيسون. وأولاد بن رخمُون، وأولاد مرصو ومن المنقول، عن سيّدي عبد الله الغَزْواني رضي الله عنه، أنَّ رَوْضَةَ مَوْلانَا عَبْد السَّلام، مشتملةٌ على ثلاثة قبور،

الوسط منهم هُوَ قَبْرُ الشَّيخ، والذي خَلْفَ ظَهْرِهِ، قبر ولدِهِ، سيّدي محمَّد، والذي بيْن يَدَيْه، قبر خديمه بن خدامة رضي الله عَنْهُم. ويُرْوىٰ أنَّ الشَّيخ كَانَ يوماً بإزاءِ خَلْوَتِهِ، يتلو القرآن، ومعه تلميذه، الشَّيخ أبو الحَسن الشاذلي، حتى وصل سورة الأنعام، إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾. فَرَد عليه وارِدٌ إلّهي، اقتطعه عن حِسّه، واسْتغرق فيه مدَّة، فلمّا أفاق رفَعَ يده إلى السَّماء داعِياً. فكان مِنْ دُعَائِهِ: اللهُمَّ من سَبَقَ لَهُ الشقَاءُ مِنْكَ فَلاَ يصِلْ إليَّ، وَمَنْ وَصَلَ إليَّ أكونُ له شَفِيعاً يَوْمَ القِيَامَةِ. اللَّهُمَّ لاَ تَبْعَثْ لَنَا مَنْ حَكَمْتَ بِشَقَائِهِ، وأمَّا علوّ قدرِهِ، وجَلاَلَة مَنْصِبِه، فذلِك أمرٌ شَهِيرٌ. وقَدْ تَغلغل في علوم القوم؛ التي مدارها علم التحقيق، بأخْلاقِ النبيّ ﷺ، فَنَالَ من ذلك الحظَّ الأوْفَر، وطريقه طريق الْغِنَىٰ الأكْبَر. قال الشَّيخ أبو الحَسن الشاذلي: دَخَلْتُ العِراقَ، واجتَمَعْت بالشَّيْخ الصَّالح، ابن أبي الفتح، فما رأيْت مِثْلَهُ، وكُنْتُ أطْلب القُطب. فقال لي بعض الأولياءِ: تطلب القطبَ وهُوَ ببلادِك. ارجع إلى بِلاَدِك تجِدْهُ. فرجَعْتُ إلى المَغْرب، إلى أن اجتمعْتُ بأسْتاذِي رضيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال أيْضاً: كُنْتُ يَوْماً بَيْنَ يَدَيْ أُسْتاذِي. فقُلْتُ فِي نَفْسِي: ليْتَ شِعْرِي، هل يَعْلَمُ الشيْخ اسم الله الأعْظم. فقال ولد الشيخ: يا أبا الحسَن: لَيْس الشأن مَنْ يعلمُ وإنَّما الشَّأن من يكون هو عيْن الاسْم. فقال الشيخ: أصَابَ وتفَرَّسَ فيكَ ولدي يا أبا الحسَن. وقيل: كان الولدُ المذكور من ثلاث سنين. وقال أيْضاً: كنْتُ في سياحَتِي في مَبْدأ أمْرِي، حصل لي تردد، هل ألْزَم البراري والقفار لأتفرَّغ للطاعة والأذكار أو أرجع إلى المُدن، لصحبة العلماء والأخْيَار، فَوُصف لي وليٌّ هُناك، وكان بِرَأْسِ جَبَلٍ، فَصَعدت إليه ليلاً، وقلت في نَفْسي: لا أدخل عليه في هذا الوَقتِ: فَسَمعته وهو يقول: مَنْ دَخَلَ المَغَارة؟ اللَّهُمَّ إنَّ قَوْماً سألُوكَ أنْ تُسَخِّرَ لَهُمْ خَلْقك فَسَخَّرْتَ لَهُمْ خَلْقَكَ فَرَضُوا بِذَلِكَ مِنْكَ، اللَّهُمَّ وإنِّي أسْألُكَ اعْوِجَاجَ الخَلْقِ عليَّ، حتَّى لاَ يَكُونَ مَنْجَا إلاَّ إلَيْكَ. والْتَفتُّ إلى نَفْسِي، وقلتُ: يَا نَفْسِي، انْظري مِنْ أيّ بَحْرٍ يَغْتَرِفُ هٰذَا الشَّيْخ؟ فلمَّا أصْبَحْت، دَخَلْتُ عَلَيْهِ، فارْتَعَبْتُ مِنْ هَيْبَتِهِ. فقلت: يا سيّدي، كيف حالك؟ فقال: أشكو إلى الله مِنْ بَرْدِ الرِّضَى والتَّسْليم، كَمَا تَشْكُو أنْتَ مِنْ حَرِّ التَّدْبير والاخْتِيَارِ. فقلت: أما شكواي من حَرِّ التدبير والاختيار، فقد ذُقْتهُ، وإني الآن فيه، وأمَّا شكواك من بَرْدِ الرِّضَى والتَّسْليم فما ذقتهُما. فقال: أخاف أنْ تشغلَني حَلاَوتهما عَنِ اللَّهِ. فقلت: يا سَيِّدي سمعتُكَ البارحة تَقُولُ: اللَّهُمَّ إنَّ قوماً... الخ.. فتبسَّمَ ثم قَالَ: يا بني عِوَضَ أن تقول: سَخِّر لي خَلْقَكَ، قل: يَا

رَبِّ كُنْ لي. أترى إذا كانَ لَكَ أيفوتك شيء؟ فما هذه الجبانة؟ اهـ. وأمَّا كلامه في الحقائق والوصايا، فقال رضي الله عَنْهُ في بعض كَلاَمِهِ: «الْزَم الطَّهارَةَ مِنَ الشُّكوكِ، كُلَّما أحْدَثْتَ تَطَهَّرْتَ، ومن تَدنّس الدُّنيا، كلَّما مِلْتَ إلى شهوةٍ، أصلحت بالتوجه، ما أفْسَدت بالْوَهْم، أو كدت، وعليك بِمَحَبَّةِ اللَّهِ عَلَىٰ التَّوْقِير والنَّزاهةِ، وأدمِن الشرب بكأسها، معَ السُّكْرِ، كُلَّما أفقْتَ أو تَيَقَّظْتَ شَرِبْتَ، حتَّى يكونَ سُكرك وصحوك بِهِ. وحتى تغيب بجماله عن المحبَّة. وعن الشَّراب، والشُّرْب والكأسُ بما يَبْدُو لَكَ مِنْ نُور جَمَالِهِ، وقُدْسِ كَمَالَ جَلاَلِهِ، ولعَلِّي أُحَدِّثُ مَنْ لاَ يَعْرف المحبَّة، وَلاَ الشُّرب، وَلاَ الكَأْسَ، وَلاَ السُّكْرَ وَلاَ الصَّحْو». قال له القائل: أجَلْ، وَكَمْ مِن غريق في الشيء لا يَعْرِفُ بِغَرَقِهِ. فَعَرِّفني ونَبِّهْني على ما أنا بِهِ جَاهِلٌ، أوْ مَا مَرَّ عليَّ وأنا عَنْهُ غافِلٌ. قلت: لكَ نَعَمْ. المَحَبَّةُ آخذةٌ مِنَ الله. قُلْتُ: مَن أحَبَّ بما يكشف له من نور جمالِهِ، وقُدْس كمالِ جَلاَلِهِ. وشُرْبُ المحبَّة: مَزْجُ الأوصَافِ بِالأوْصَافِ، والأخلاقِ بالأخلاقِ، والأنوارِ بالأنْوَارِ، والأسماءِ بالأسماءِ، والنُّعُوتِ بِالنُّعُوتِ، والأفعالِ بالأفْعَالِ. وَيَتَّسعُ فيه النَّظَر لِمَنْ شَاءَ الله عَزَّ وَجَلَّ. والشُّرْب: سَقي القلوب، والأوصال والعُرُوقِ مِن هٰذا الشرابِ، ويكُونُ الشربُ بِالتَّدْريب بَعْدَ التَّدريب، والتهذيب بعد التهذيب، فيسقى كل على قَدْرِهِ، فمنهم مَنْ يُسقَى بِغَيْر واسِطةٍ، والله يتولَّى ذلك، ومنهم من يُسقى مِن جِهَةِ الْوَسَائِطِ، كَالملائِكَة والعُلماء، والأكابِرِ مِنَ المُقَرَّبِينَ، فمنهم من يسكر بشهودِ الكأس، ولَوْ لَمْ يَذُقْ بَعْدُ شيئاً. فمَا ظنّك بَعْدُ بالذَّوْقِ، وبعدُ بالشرْب، وبَعْدُ بالرِّيّ، وبَعْدُ بالسُّكْرِ، وبعدُ بالمشروبِ. ثمَّ بالصحوِ، ثم بَعْدَ ذلك على مقادر شتى. كالسُّكْر أيْضاً كذلك. والكأس: مِغرفَة الحقِّ، يُغرفُ بِهَا من ذلكَ الشَّرابِ الطهور المحضِ الصَّافي، لِمَن شاءَ من عِبَادِهِ المخلصينَ من خَلْقِهِ. فتارةً يشْهَد الشراب بذلكَ الكَأْسِ صورة، وتارة يشهدها معنوية، وتارة يشهدها عِلْمية. فالصُّورة حَظُّ الأبدانِ والنُّفوس، والمعنوية حظُّ القلوب والعُقول، والعلمية حَظُّ الأرواح والأسْرَار. فَيَا لَهُ مِن شَرَابٍ ما أعْذَبَهُ! فطوبَى لِمَنْ شَرِبَ مِنْهُ ودَامَ. وَلَمْ يُقْطَعْ عَنْهُ. نسأل الله من فضله، ذَلِكَ فضل الله يؤتيه من يشاءُ. وقَدْ تجتمعُ جَمَاعة من المُحِبِّينَ، فَيُسْقَوْنَ مِن كَأْسٍ واحدة، وقد يُسْقَوْن مِن كُؤُوسٍ كثيرة، وقد تختلف الأشْرِبَةُ بِحَسَبِ الكُؤوسِ، وقَد يختلف الشُّرْبُ من كأس واحدة. وإنْ شَرِبَ مِنْهُ الجَمُّ الغَفِيرُ مِن الأحِبَّةِ اهـ. قُلْتُ: وَقَدْ شَرَحْت هٰذا الكَلاَم، في شَرْحِنَا لخمرية ابن الغارف اهـ.

«ومِنْ وَصَايَاهُ رَضِيَ الله عَنْهُ، لتلميذِهِ أبي الحَسَنِ، قال له: الله الله، والنَّاسَ نَزِّهْ لسانَكَ عَنْ ذِكْرِهِمْ، وقَلْبكَ عَنِ التَّمَاثُلِ من قِبَلِهِم. وقل: اللَّهُمَّ ارحَمْنِي مِنْ ذِكْرِهِم، ونَجِّني مِن شرِّهم، واغنني بِخَيْرِكَ عَنْ خَيْرِهِم، وتَوَلَّني بالخُصُوصية مِنْ بَيْنِهِمْ. إنَّكَ على كل شيءٍ قدير» وقال الشَّيخ أبُو الحَسَن رضي الله عَنْهُ: أوْصَانِي حَبِيبِي، أي أُسْتاذي مَوْلانَا عَبْد السَّلام بن مشيش، فقال: يَا أبا الحسَن: لاَ تَنْقُلْ قَدَمَيْكَ إلاَّ حَيْث تَرْجُو ثَوَابَ الله، وَلاَ تَجْلِسْ إلاَّ حَيْث تأْمَن غالباً مِنْ مَعْصِية الله. وَلاَ تصْحَبْ إلاَّ مَن تَسْتعينُ بِهِ عَلَى طَاعَةِ الله. وَلاَ تصطفي لِنَفْسِكَ إلاَّ مَنْ تَزْدادُ بِهِ يقيناً، وقليلٌ مَا هُمْ اهـ. وقال أيْضاً: أوْصَانِي أُسْتاذِي فَقَالَ: «لاَ تَصْحَبْ مَنْ يُؤثر نَفْسَهُ عَلَيْكَ، فإنَّهُ سَئِيمٌ، وَلاَ مَنْ يؤثرك على نَفْسِهِ، فإنه قَلَّ ما يَدُومُ، واصحبْ مَنْ إذا ذَكَرَ، ذَكَرَ الله، فإنَّه يُغْنى بِهِ إذا شُهِدَ، وينوب عَنْهُ إذا فُقد ذِكرهُ نور القلب، ومُشاهدته مِفْتاحُ الغيوب». وقَالَ أيْضاً: رَضِيَ الله عَنْهُ: يَا أبا الْحَسَن «اهربْ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ، أكْثَرَ مِنْ أن تَهْربَ مِن شَرِّهِمْ، فإنَّ خَيْرَهُمْ يصيبكَ في قَلْبِكَ، وشَرَّهُمْ يصيبُكَ في بَدَنِكَ، ولأنْ تُصَابَ في بَدَنِكَ خَيْرٌ مِن أن تصابَ فِي قَلْبِكَ، ولعَدُوٌّ تصِلُ بِهِ إلىٰ ربِّكَ خَيْرٌ مِنْ حَبِيبٍ يقطَعُكَ عَنْ رَبِّكَ». وَقَالَ أيْضاً: سَأَلْتُ أُسْتَاذِي رضِيَ الله عَنْهُ عَنْ قَوْلِ الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلامُ: «يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا، وبَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا». فَقَالَ رَضِيَ الله عَنْهُ: دلُّوهُمْ عَلَى الله، وَلاَ تَدُلُّوهُمْ على غَيْرِهِ، فإنَّ مَنْ دَلَّكَ عَلَى الدُّنْيَا فَقَدْ غَشَّكَ، ومَنْ دَلَّكَ عَلَىٰ العمل فَقد أتْعَبَكَ، ومَنْ دَلَّكَ عَلَىٰ الله فَقَدْ نَصَحَكَ. وَقَالَ أيْضاً: فَقَدْ سَأَلَنِي أُسْتَاذِي فَقَالَ: يَا أَبَا الحَسَن: بِمَاذَا تَلْقَىٰ الله؟ فَقُلْتُ بِفَقْرِي، فَقَالَ: لَئِن لَقيت الله بِفَقْرِكَ لَتَلْقِيَنَّهُ بالصَّنَم الأعْظَم. وإنَّما يُلْقَى الله بِهِ سُبْحَانَهُ، لاَ بِشَيْءٍ سِوَاهُ. وقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا سَيِّدِي وَظِّفْ عَلَيَّ وظائف وأوراداً أعْمَلُ بِهَا. فقال لَهُ: أرَسُولٌ أنا؟! . الفرائض مشهورة، والمحرمات معلومة، فَكُن للفَرَائض حَافِظاً، وللمعاصِي رَافِضاً، واحْفَظْ نَفْسَكَ مِن حُبِّ الدُّنْيا، وحُبِّ النِّساءِ وحُبِّ الْجَاهِ، وإيثار الشهوات، واقنَعْ بِما قَسَّمَ الله لكَ. إذا أخرجَ لَكَ مخرجَ الرِّضَى، فَكُنْ فِيهِ شَاكِراً، وإذا أخرج لك مخرج السُّخطِ، فكُن عليه صَابِراً، وحبُّ الله قُطْبٌ تَدُور عَلَيْهِ الخَيْراتُ، وأصْلٌ جَامعٌ لأنواعِ الكراماتِ وحَصْرُ ذلك كلّه في أرْبَع: الوَرَع، وحُسن النِّيَّة، وإخلاص العمل، وصُحْبة العلم؛ ولا تَتِمُّ لهُ هذه الجملة إلاَّ بِصُحْبَةِ أخٍ صالحٍ، أو شَيْخٍ نَاصِحٍ.

أخَذَ رَضِيَ الله عَنْهُ عَنْ شَيْخِهِ أبِي محمَّد، سَيِّدي عَبْد الرَّحمن المَدَني، المُلقَّب بالزَّيَّات، لسكناه بحارة الزياتين، وكَانَ الشَّيخ سيّدي عبد السَّلام بن مشيش

في صُغْرِهِ، انقطع للعبادة في مغارة بِجَبَلِ العَلَم، بَعْد أن أدْرَكَهُ الجَذْب؛ وهو ابْن سبع سنين. فَدَخل عليه بعد مُدَّةٍ رجلٌ عليه سيما أهْل الخَيْر والصَّلاح، فقال: أنا شيخُكَ الَّذي كنْت أمْدّكَ من وقت الجذب إلى الآن. ووصَفَ لَهُ ما وَصَلَ إلَيْه عَلَى يَدَيْهِ من المُنازَلاتِ والمَعَارِف، وفَصَّلَ لَهُ ذلِكَ مَقاماً مقاماً، وحالاً حالاً، وعيَّن لكلِّ حالٍ زمَنَهُ، ثم سُئِلَ رضي الله عَنْه بعد ذَلِكَ، هَلْ كَانَ يأتيكَ أوْ كُنْتَ تأتيه؟ فقال: كل قد كان. فقيل لهُ: أطيًّا لمسافة المكان، أوْ سفراً. فقال: طيًّا. وأخذ شيخه المذكور، عن عارف وقْتِهِ: القطبُ تقيّ الدِّين الفقير فيهما، وهو من أرض العِراق، وهو عن الْقطب فَخْر الدِّين، عن القطبِ نور الدِّين أبي الحسين، عن القطب تاج الدِّين، عن القطب شمس الدِّين بأرض الترك، عن القطب زيْن الدِّين القزويني، عن القطب أبي إسحاق، إبراهيم البَصْري، عن القطب محمَّد أبي القاسم أحمد المِرْواني. عن القُطْبِ أبي محمَّد سعيد، عن القطب سَعْدٍ، عن القطب محمد فتح السعود، عن القطب سعيد الغزواني، عن القطب أبي محمد جابر، عن أوّل الأقطاب، سيّدنا الحسَن، عن أبيه سيّدنا علي بن أبي طالب، عن سيّد الأولين والآخرين، سيّدنا ومَوْلانَا محمَّد ﷺ، ويتّصل نَسَبُنَا بِهذا الشَّيخ، من طريق شَيْخنا العارف البُزَيْدي الحسني، عن شيخه العارف، مَوْلاي العربي الدرقاوي الحسني، عن شيخه العارف، سيدي علي العمراني الحسني، عن شيخه العارف سيّدي العربي بن أحمد، بن عبد الله، عن أبيه سيدي أحمد بن عبد الله، عن سيدي قاسم الخصاصي، عن العارف بالله، سيدي عبد الرحمن الفاسي، عن سيدي محمَّد بن عبد الله الكبير، والد سيدي أحمد، وهما عن القطب سيدي يوسف الفاسي، عن العارف سيّدي عبد الرحمن المجذوب، عن شيخه سيّدي علي الصنهاجي؛ المشهور بالدوار، عن شيخه سيّدي إبراهيم أفحام، عن سيّدي أحمد زروق، عن شيخه سيّدي أحمد بن عقبة الحَضْرَمي، عن سيدي يحيى القادري، عن القطب سيدي علي بن وفا، عن والده سيّدي محمَّد بحر الصفا، عن سيدي داود البلفي، عن سيدي أحمد بن عطاء الله، عن القطب سيدي أبي العباس المرسي، عن القطب سيدي أبي الحسن الشاذلي، عن القطب الكبير العارف الشهير صاحب التصلية؛ الَّذي قال في أوَّلِهَا: «اللَّهُمَّ». أي يا الله، حذفت الياءُ إزالة للبُعْدِ الذي تدلّ عليه، وعُوضَتْ عنها الميم، دلالة على الجَمْع، ولذلكَ قال الحسَنُ: مَن قال: اللهمَّ، كأنّما دَعَا الله بأسْمَائِهِ كُلِّها؛ لأنَّ الميم تدلّ على الجَمْع، كهُمْ «صَلّ» أي ترحَّم وتعطف «عَلَى» سيّدنا ومَوْلانَا محمَّد «مَنْ» أيْ الذي «مِنْهُ» أيْ من نورهِ؛ الذي هو

بَذْرة الوجود، والسبب في كل مَوْجُودٍ. ويحتمل أن تكون مَنْ تعليلية، أيْ من أجْله ﷺ «انْشَقَّتْ» أي لاَحَتْ وظَهَرَتْ، أوْ نَبَعَتْ وَانْفَجَرَتْ «الأسْرارُ» أي أسْرار الذَّات العالية. وقد كانت قبل ظهور نوره محجوبة باطنية، تجلّى فيها الحقّ تعالى باسمه الباطن، فلمَّا أراد أن يتجلّى باسْمِهِ الظَّاهِرِ، أظهر قبضةً مِنْ نوره، فقال: كُوني محمَّداً، فَمِن تلك القَبْضَة المُحَمَّديَّة، تكوَّنَتِ الأكوانُ، منَ العَرْش إلى الفرْش، فما ظَهرت أسْرار الذَّاتِ، إلاَّ من تلك القبْضة النّورانية، فَظَاهِرُهَا ذات، وباطنها صفات، وبتلك الصفات، وقع التكثيف والتصويرُ، والتعبيرُ، والتشْكيل والتحبير. . وإلى ذلك أشار بقَوْلِهِ: «وانْفَلَقَتْ» أي من نورِهِ ﷺ، انفلقَتْ، أي انفلقَتْ وظَهَرَت «الأنْوارُ» أي أنْوار الصفاتِ، وأنوارُهَا: أي آثارها؛ التي ظهرتْ على ظاهر التجليات. مِنْ تكثيفٍ وتلطيفٍ، وتقييدٍ وتخصيصٍ، وتشكيل وتمييز، وإعْزاز وإذلالٍ، وخَفْضٍ وَرَفْع، وقبْضٍ وبَسْطٍ. وغَيْر ذلِكَ مِن اختلافِ الآثار، وانتقالات الأطوار، فهذه كلها من آثار الصفات الأزلية، التي هي القدرة، والإرادة، والْعِلم، والحياة. والصفات لا تفارق الموصوف، لكِنْ لمَّا كانت الصِّفاتُ لطيفة لا تُدْرَكُ أظهرتْ نفْسَها في المحسوساتِ، والذَّات عيْن الصفات، والصفات عيْن الذَّات، أي مَحَلّها واحِدٌ، فَحَيْث تجلَّتِ الذَّاتُ تجلَّتِ الصِّفاتُ، وحيْث ظَهَرَتِ الصِّفات، ظَهَرتِ الذَّات، فَعَبَّروا عن هذا الكلام بالاتِحادِ، والعَيْن، فأهْلُ الفَرْق وهُمْ أهْل الحجابِ، لا يشهدون إلاَّ الصفات، أي أثرها؛ وهم محجوبون عن شُهُودِ الذَّاتِ فكُلُّ مَن دَخَلَ عالم التكوين، فهُوَ من تِلكَ القبْضةِ، فَظَاهِرها الخ. . . وأهْلُ الجمْع؛ وهم أهْل الجَذْبِ والفناء، لا يشهدونَ إلاَّ الذَّات، ويغيبُونَ عن أثر الصفاتِ، وأهْل البقاءِ؛ وهم أهْلُ الكَمَالِ يشهدونَ الذَّات فِي الصِّفاتِ، والجمْعَ في الفَرْقِ، لا يحجبُهُمْ جَمْعهم عن فَرْقِهِمْ؛ ولا فَرْقُهُمْ عن جَمْعِهِم، يعطون كل ذي حقٍّ حقَّهُ، ويُوفون كُلَّ ذي قِسْطٍ قِسْطَهُ. فَكَلام الشيخ رضي الله عنه مِنْ بابِ التَّرقِّي، فانشقاق الأسْرارِ؛ لأهل الفَنَاءِ فِي الذَّاتِ؛ وهم أهل الجذْبِ والسكر. وانفلاق الأنْوار؛ لأهْلِ البقاءِ؛ وهو الرجوع إلى شهودِ الأثرِ بالله، وهم أهل السلوكِ بَعْدَ الجذْبِ والفناء.

ويحتمل أن يريد بقوله: منه انشقت الأسرار. أي أسرار الجبروت، ومنه انفلقت الأنوار، أي أنوار الملكوت. أو تقول: منه انشقت الأسرار. أي أسرار الحقيقة، وانفلقت الأنوار، أي أنوار الشريعة. أو تقول: منه انشقَّت الأسرار، أي أسْرار الإحسان، وانفلقت الأنوار، أي أنوار الإيمان والإسلام. أو تقول: منه

انشقت الأسرار: أسْرار عالم الغَيْب، وانْفَقَلَتِ الأنْوَار: أنوار عالم الشَّهَادَةِ. أوْ تَقولُ: مِنْهُ انشقت الأسْرار: أسْرَار القدرة. وانفلقَتْ الأنوار، أنوار الحِكمة.

ويحتمل أنْ يكون كلامهُ من باب التَّدلّي، فيكونُ قدَّم أوّلاً مقام أهْل الإحسان، من أهْل الشهود والْعِيَان. ثم نَزَل إلى مقام أهْل الدَّليل والبُرْهان، وهم أهْل شهود أثر الصّفَات، قبل شهود الذَّاتِ، فيكون قَوْلهُ: انشقَّتِ الأسْرار لأهْل الفَنَاءِ فِي الذَّاتِ. وانفلَقَتِ الأنوارُ؛ لأهْل الفَنَاءِ في الصّفاتِ؛ قبل الفَنَاءِ في الذَّاتِ. فإنَّ عامَّة المتوجّهينَ، يَبْتدئون بِشهودِ الأثَرِ، ثم يَرْتقُونَ إلى شهودِ المُؤثِّرِ بالشريعة، ثم بالحقيقة وبالإسْلام والإيمان، ثم بالإحسان، وبعالَم الشَّهادة، ثم عالَمِ الغَيْبِ، وبالحِكمة ثم القدرة، فيكون أوّلاً في توحيد الأفعال: لاَ فاعل إلاَّ الله؛ وهو نهاية الصالحين، ثم في توحيد الصفات: لا حَيّ ولا قَادِر مريد، وَلاَ سَمِيعَ، وَلاَ بَصِير، ولا متكلّم إلاَّ الله، ثم في توحيد الذَّاتِ: لاَ موجود إلاَّ الله، ثم يزيدون إلى مقام البقاءِ، وإلى ذَلِكَ أشار بعضهم بقولِهِ:

وَيَفْنَى ثُمَّ يَفْنَى ثُمَّ يَفْنَى ... فَكَانَ فَنَاؤه عَيْنَ البقاءِ

ولقَدْ سمعتُ شيخنا البوزيدي رضيَ الله عَنْهُ يَقُولُ: طريقنا ليْس فيها إلاَّ فَنَاءانِ: فناء الأفعال، وفناء الذات. وأما فناء الصفات فهو مطوي في فناءِ الذَّاتِ؛ وهو كما قال رضي الله عَنْهُ، لأن طريق الشاذلية مختصرة، صاحبها أول قدم يضعه في مقام الإحسان فيفْنَى أوّلاً في الاسْم، ثم في الذَّاتِ فنهاية الصَّالحين، بداية العارفين، وكلامنا كله مع مَنْ وجد شيخَ التربية، وأمَّا من لم يجد فَلاَ كَلاَم مَعَهُ، إذ لاَ سِرَّ لَهُ.

تنبيهٌ: إنما خصّ تجلّي الذَّات بالأسرار، وتجلّي الصفات بالأنْوارِ؛ لأن تجلّي الذَّات لا يدركه إلاَّ الخواصّ، أو خواصّ الخواصّ. ومن شأن السرّ أن لا يُدْركه إلاَّ الأفراد، بخلاف تجلّي الصفات؛ وهو الأثر، فيُدركه العام والخاصّ. كما أنَّ النور كذلِكَ، لا يخفى على أحدٍ، وإنما خصَّ أيْضاً السرّ بالشقّ، والنُّور بالفلقِ، لأنَّ الشق يكون أوّلاً، ثم يقع الفلق ثانياً. تقول: انشقَّت الإناءُ إذَا لَمْ تَنْفَصِلْ فاحتجبَت بِلاَ حجاب، ولله درّ القائل:

وَمَا احْتَجَبَتْ إلاَّ بِرَفْعِ حِجَابِهَا ... وَمِنْ عَجَبٍ أنَّ الظُّهُورَ تستر

وفي مشاهدتها على ثلاثة أقسام:

قسم يشهدونها بعد مشاهدة الأكوانِ؛ وهم أهل الجذب والفناء، فإذا انْفَصَلَ، تقول انفَلَقَ، كذلِكَ انشقَّت الأسْرار، يكون أوّلاً لأهل الفناءِ، وانفلاق الأنوار يكون ثانياً لأهْل البقاء بعد الفناء. واعلمْ أن الأنوار الحسية ثلاثة: نورُ النجوم، ونور القمر، ونور الشمس. والأنوار المعنوية كذلك: نور الإسْلام، كَنُور النُّجُوم، ونور الإيمان كنور الْقَمَرِ، ونور الإحسان كَنُورِ الشَّمْسِ، أوْ تقول: نور الفَنَاءِ في الأفعالِ كنُور النجوم، ونُور الفناءِ في الصفات، كَنُور القَمَر، نور الفناء في الذَّاتِ، كنُور الشَّمْسِ فأوّلُ ما يكْشَفُ للمُرِيد، نور ضعيف كَنور النجوم، فتراه يسقط ويقوم، لخفاءِ الطريق، تختفي. ثم يَبْدُو لَهُ قَمَرُ التوحيد. فيقل عِثارُهُ. ثم تطلع عليه شمس العِرْفان، فلا يخفى عليه مكانٌ، وفي ذلك يقول المجذوب رضِيَ الله عَنْهُ:

طَلَعَ النَّهارُ على الأقمارِ ولا يَبْقَى إلاَّ رَبِّي ... النَّاسُ زَارَتْ مُحَمَّدْ وأنَا سَكَنْ لِي فِي قَلْبِي

وقال أيْضاً:

طَلَعَ النَّهارُ عَلَى قَلْبِي ... حَتَّى نَظَرتُه بِعَينيا

وقال آخر:

إنَّ شَمْسَ النَّهَارِ تَغْرُبُ بِلَيْلِ ... وشَمْسُ الْقُلُوبِ لَيْسَتْ تَغِيبُ

وقُلْتُ فِي قصيدتي الرَّائية، في سِرّ الرُّوحِ:

لطيفة نُورٍ في كَثَافَةِ ظُلْمَةٍ ... ولكِنَّ بَدْرَ التَّام في لَيْلِهِ يَجْرِي
فَإنْ أشْرَقَتْ شَمْسُ النَّهَارِ تَغَيَّبَتْ ... غَيَاهِبُ لَيْلٍ عَنْ سَمَا قَلْبِكَ الدُّرِّي
ألا إنَّ شَمْسَ الحِسِّ تَغْرُبُ لَيْلُهَا ... ولَيْسَ لِشَمْسِ الحَقِّ مِنْ أفُلٍ يَجْرِي

واعْلَمْ أنَّ هذه الأنوار؛ التي انفلقت مِن نُورِهِ عليه السَّلام، انحجَبَتْ بِسِرِّ الحِكْمَةِ في حَالِ ظهورها، إذْ لا بُدَّ لِلْحَسْنَاءِ مِنْ نِقَابٍ، والشَّمْسِ من سَحَابٍ، فَاحْتَجَبَتْ بِلاَ حِجَابٍ، ولله درُّ القائِلِ:

وَمَا احْتَجَبَتْ إلاَّ بِرَفْعِ حِجَابِهَا ... وَمِنْ عَجَبٍ أنَّ الظُّهُورَ تَسَتُّرُ

والنَّاسُ في مُشاهدتها على ثلاثة أقسام:

قسم يشهدونها بعد مُشَاهَدَة الأكْوَانِ؛ وهم أهْل الجَذْبِ والفَنَاءِ، مِنْ أهْلِ مقام الإحْسَانِ، وإليه أشار بعضهم بقولِهِ: ما رَأيْت شَيْئاً، إلاَّ رأيْت الله قبله، ولَمْ أره حَدِيثاً، وإما هو من قول بعض العارفين، كالذي قبْلَهُ. والله تعالى أعْلَمُ.

وقَالَ الشَّيْخُ مَوْلاَنَا عَبْد السَّلام لِتِلْميذِهِ أبي الحسَنِ: «حَدِّدْ بَصَرَ الإيمَانِ، تَجِدِ الله تعَالَى في كُلِّ شَيْءٍ، وَعِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَعَ كل شيْءٍ، وتَحْتَ كل شيْءٍ، وقريباً من كلِّ شَيْءٍ، ومحيطاً بكلِّ شيْءٍ، بِقُرْبٍ هُوَ وَصْفُهُ، وبِإحَاطَةٍ هِيَ نَعْتُهُ. وعُدَّ عَنِ الظَّرْفِيةِ والحدودِ، وعن الأماكِنِ والجِهَاتِ، وعن الصحبة، والقرْب في المَسَافَاتِ، وعن الدَّور بالمخلوقاتِ، وامْحَق الكلّ، بوصْفه الأول والآخِر، والظَّاهر والباطِنُ، وهُوَ هُوَ هو. كَانَ الله وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ، وهو الآن على ما عليه كان». وَقَوْلُهُ: حَدِّدْ بحاءٍ مهْمَلة، أي صِف، وقوله: وامحَقْ، هو بالميم من المحقِ؛ وهو المحْق والإضْمِحْلاَلُ، وبَاقِي كلامِه ظاهرٌ عِنْد أهْل الأذْوَاقِ، نَفَعَنَا الله بذكْرِهِمْ، وحَرَطَنَا فِي سِلْكِهِمْ آمينَ. ثم قال رضي الله عَنْهُ: «وفِيهِ»: أيْ في سَمَا قَلْبِهِ الصافِي «ارْتَقَت»: أي ارتفَعَتْ وأشرقَت شُمُوسُ «الحَقَائِقِ» العِرْفانية؛ والأسْرار الرَّبَّانية، والعلوم اللَّدُنية. شبَّهَ قَلْبَهُ عليه الصَّلاَة والسَّلام، بِسَمَاءٍ صاحِيَةٍ. أشرقت فيها شموس كثيرة، فامْتَلأَتْ بالأَنْوَارِ. ولذلك جمع الحقيقة، وإن كَانَت في الأصل واحدة؛ لأنه عليه الصَّلاة والسلام، اجتمع فيه من الحقائق، ما افترَقَ في غَيْرِه. فكان باطِنه عليه الصَّلاة والسلام، معموراً بِأنوار الحقائقِ، وظاهِرُهُ معموراً بأنوارِ الشَّرائع، فَكَان عليه الصَّلاة والسلام، أعطاه الله القوة مِنَ الجِهَتيْنِ: ظاهره معموراً بالشرائع، وباطنه معموراً بالحقائق. وَلاَ يكون هذا إلاَّ له عليه الصلاة والسلام، أوْ لِمَن كَان على قَدَمِهِ ﷺ، ممَّن أهَّلهُ الله للاقْتِداء بِهِ. ويكون هذَا بَعْد التمكين، ولقد سمعْت شيخ شيْخنا مولاي العربي رضي الله عنه يقول: لاَ تجتمع مجاهدة ومشاهدة، إلاَّ في رَجُلٍ واحدٍ، على قَدمِهِ ﷺ، واعترض قول الشيخ اليوسي في بعض أدعيته: وزيّن الظاهر بالمجاهدة، وزيّن الباطن بالمشاهدة. إذ لا مُجاهدة في الظَّاهِرِ، قبل مشاهدة الباطِنِ، كما تقدَّم. وقال شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل رضي الله عنهُ: الوليُّ الكامل؛ هو الذي يكون ظاهره معموراً بالشَّرائع، وباطنهُ معموراً بالحقائق. قُلْتُ: وهذا قليلٌ. وعلى تقدير وُقوعِهِ: تكون عِبَادة الله معمولاً فيها بالقدرةِ، فلا مجاهدة له فيها البتَّة. والغالب على أهْل الباطِنِ خفاء أعْمَالِهِمْ؛ لأنَّها قَلْبيَّة: بيْن فِكْرةٍ ونَظْرةٍ، وشهودٍ وعِبْرةٍ، لا يزيدون على الفرائض إلاَّ ما تَيسَّرَ. ثم يستغرقون في الفِكرة والنظرة التي هي أفضل العبادات. ساعة منها تَفْضل عبادة سَنَةٍ، كما في الحديث. وفي رواية سَبْعين سَنَة. والجمع بَيْنهما، أنَّ الأول في فِكْرَة أهل الحجابِ، والثاني في فِكرة أهْل العِرْفان. وفيه قال الشاعِرُ:

كُلُّ وقْتٍ مِنْ حَبِيبي قدرُهُ كألْفِ حجَّةٍ

أي: سنة. وقال أبو العبَّاس المُرْسي، رضي الله عنه: قَوْمٌ أقامَهُمُ الله لخِدْمتِهِ، وقَوْمٌ اخْتَصَّهُمْ لِمَحَبَّتِهِ. «كُلاً نَمِدُّ، هؤُلاءِ وهؤلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ، وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظوراً». فأهْلُ المَحَبَّة، هم أهْلُ الفِكْرَة، وأهْلُ الخِدْمَة، هم أهْلُ العبادة الظَّاهرةِ. أوْ تقول: أهْلُ المحبَّة هُمْ أهْل العِبَادة القلبية. وأهْلُ الخِدْمَةِ؛ هم أهْل العِبَادَةِ الخارجية. أوْ تقول: أهْلُ المحبَّة، هم أهْل العِبَادَةِ المَعْنَوِيَّة، وأهْل الخِدمَة هم أهْل العِبَادةِ الحِسِّيَّة. والحاصلُ: أنَّ عمل الشريعة، لا بُدَّ لهُ أنْ يعْتبرَ الحقيقة. والحقيقة لا بُدَّ أنْ تعْتبرَ الشريعة. إلاَّ مَا لا بُدَّ مِنْهُ. وَمَنْ قال خِلاَفَ هذا؛ فهو جَاهِل بِعِلْم الباطِنِ. وقد رأيْت فِي قوتِ القلوب؛ لأبي طالب المكِّي، رضي الله عَنْهُ. أنَّ بعض العَارفينَ قال لَهُ المَلَكُ الَّذي يكْتُبُ أعْمَالَهُ: يَا سَيِّدي، فَرِّحْنَا بِشَيْءٍ مِنْ أعْمَالِكَ، أي ظهِّرْهُ لَنَا، نتقرَّب بِهِ إلى رَبِّنا. فَقَالَ له: أمَا يكفيكَ الصلوات الخَمْسُ. وانظر قول الشاعر؛ وهو الحَلاَّج:

قُلُوبُ العَارفِينَ لَهَا عُيُونٌ ... تَرَى مَا لاَ يُرَى لِلنَّاظِرِينَ

وألْسِنَةٌ بِأسْرَارٍ تُنَاجِي ... تُغِيبُ عَنِ الكِرَامِ الكَاتِبِينَ

وأجْنِحَةٌ تَطِيرُ بِغَيْرِ رِيشٍ ... إلَى مَلَكُوتِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

وقد ذَيَّلْناهُ بِبَيْتَيْن آخَرَيْنِ فقلْت:

وأفْئِدَةٌ تَهِيمُ بِعِشْقِ وُجْدٍ ... إلَى جَبَرُوتِ ذِي حَقٍّ يَقِينَا

فَإنْ أرَدت دَرْكَ ذي الْمَعَانِي ... فَبَدِّلْ رُوحَكَ قَلِيلاً فِينَا

فهذه عبادة العارفينَ المحققينَ، باطنية خفية. ولذلكَ اخْتَفَوا عن كَثير مِنَ النَّاسِ. فَلاَ يَعْرفهُمْ إلاَّ مَنْ أرَادَ الله أن يُعَرِّفَهُمْ بِهِمْ، ثُمَّ أشَارَ رَضِيَ الله عَنْهُ إلى الْعِلْم الظَّاهِرِ؛ الذي علمه عليه السلام فقال: «وتَنَزَّلَتْ» فِي قَلْبِهِ عليه السَّلام، بالوحي والإلهام «عُلُومُ آدَمَ» عليه السلام. قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ أيْ ألْهَمَه الله، وألقَى في فِطرتِهِ مَعْرِفةَ الأشياءِ كُلِّها، ولغات الألسُن كُلِّها، مِنْ عَرَبيَّة وسِرْيانية وغيرهما، مما تكلم به أوْلاَدهُ، وكَذَلِك نَبِيُّنَا عليه الصلاة والسلام، علمَهُ الله أسْمَاءَ الأشياءِ ومسمياتها وزَادَ معرفة خواصِّها ومَنَافعها. وكان عليه السَّلامُ، يَعْرف لغات العرب والْعَجَم وغَيْرهما، فَكَانَ يُخَاطِب كل قَوْم بِلُغَتِهِم، ويكْتُبُ إلَيْهِم بعُرْفِ كَلامِهِمْ. وقد أطلعه الله تعالى، على عُلوم المتقدمين، وشرائعهم الدَّارسة، وأخبارهم الماضية، وعَلِمَ ما يكونُ في أُمَّتِهِ مِنَ الأحْدَاثِ والوقائِعِ. وما

يَلْقَوْنَ من المصائِبِ والفَجَائِعِ، وخَصَّهُ الله بِأسْرارٍ، لَمْ يطَّلِعْ عليها أحَدٌ مِن خلقِ الله. وَكَانَ عَلَيْه الصَّلاةُ والسلامُ، يخصّ قوماً بأسْرَارٍ لَمْ يَفْشِهَا لغَيْرِهِمْ. حتَّى قال الفَارُوقُ رضيَ الله عَنْهُ: كُنت أدْخُلُ على النبيّ ﷺ، ومَعَهُ الصدِّيق رضي الله عنه، وهما يتكلمَانِ في عِلْم السّرّ، وفي عِلم التوحيد، فأكون بيْنهما كالزّنجي، لا أعرف ما يقولاَنِ. قال سيّدي عبد الوارث، في شَرْح المَبَاحِثِ: كَانَا أوّل مرَّةٍ يتكلمَانِ فِي عِلْم السّرّ، فإذا دَخَلَ عُمَرُ رضِيَ الله عَنْهُ، أمْسَكَا. ثم أشرَكَاهُ في المذاكرةِ. فإذا دَخَلَ عثمان رضي الله عنْهُ، أمْسَكُوا، ثم أشركوهُ في المُذَاكرةِ، فإذَا دَخَلَ عليٌّ رضِي الله عَنْهُ، أمْسَكُوا، ثم أشركُوهُ في المُذَاكَرَةِ. وقال غيرهُ: كَان عليٌّ رضي الله عنه، يَفْهَم تِلك الأسرار، قبل أن يشركوه فِي المُذَاكَرَةِ. والله أعْلَمُ. وهذه الأسرار لَيْسَت من علم الظَّاهر، وإنَّما هِيَ من عِلْم الباطِنِ، فحقها أن تُذْكر عِنْدَ قَوْله: «وَفِيهِ ارْتَقَتِ الْحَقَائِقُ». لكن انْجَرَّ الكَلاَم إلَيْهاَ فِي هذَا الْمَوضُوع. فالأمْرُ قَريبٌ، إذ إنَّ عِلْمَ الباطِنِ، لاَ يتحقق إلاَّ بعد الْعِلم الظَّاهر؛ وهو ما يتعلَّق بإصْلاَحِ الجوارح الظَّاهرة. فالعلومُ ثلاثة: علمٌ يتعلق بإصلاح الظَّاهِرِ، ويُسَمَّى علمَ الشريعة، وعِلْمُ الحِكْمَة، وعِلْمٌ يتعلق بإصْلاَحِ الْبَاطِنِ؛ ويُسمَّى عِلمَ التَّصَوُّفِ، وعِلْمَ الطريقةِ. وهما كسْبِيّانِ، وعِلْمٌ مَوْهُوبٌ، ويُسمَّى علم الحقيقة؛ وهو الثمرَة والغاية. فكُلّ علم لا يُبَلِّغُ صاحِبَهُ لِعِلْم الحقيقةِ؛ فَهُوَ نَاقِصٌ. إذْ ثَمرَةُ العِلم العمل. وثمرَة العمل الحال. وثمرة الحال الذَّوق والوُجْدَان؛ وَهُوَ نِهَايَةُ الْعِرْفَانِ. وَلاَ بُدَّ مِنْ شيخ مُرَب، ينقل المُريد من عِلْم الشريعة، إلى عِلْم الطَّريقة، مع تحقيق الشريعة. وإلاَّ بَقِيَ في أحدهما عَلَى الدَّوام. والشريعة: تصْلِحُ الظَّواهر، والطريقة تصلحُ الضَّمائر. والحقيقة تصلح السَّرائر. أوْ تقول: الشريعة أن تَعْبُدَهُ. والطريقة أن تقصدهُ. والحقيقة أنْ تشهدَهُ. أوْ تقول: الشريعة للطالِبينَ. والطريقة للسَّائرينَ. والحقيقة للواصلينَ. أوْ تقول: الشريعة لطالبِ الأجُورِ. والطريقة لطالبِ الحُضُورِ. والحقيقة لِرَفْع السُّتُورِ. أوْ تقول: الشريعة للعوامّ. والطريقة للخَوَاصّ. والحقيقة لخواصّ الخواصّ. ومَرْجع الشريعة إلى امتثالِ الأمْرِ، واجتنابِ النَّهْي. ومَرْجع الطريقة، إلى تخلِّية وتحلِّية. فالتخلِّي: التطهير من الرَّذائِلِ. والتَّحْلية: الاتصافُ بالفضائلِ. وإنْ شئت قلت التخلية: هِيَ التَّنَزُّهُ عَن أخْلاَقِ البَهَائِم والشياطين. والتحلية: التخلّق بأخْلاَقِ الرُّوحانيينَ. فأخلاق البَهَائِم: الإهتمامُ بالأكْلِ والشرْبِ والنكاح، وأخلاق الشياطين: الحسَدُ والمَكْرُ، والخديعة، والغِشُّ، والكِبْرُ، والْغَضَبُ، والحدةُ، والقلَق، والشُّحُّ. والفظاظة والقسْوَة، وحبّ الجاه، والمال، والرياسة

وغيْرُ ذلِكَ مما لاَ يُحصَى. حتَّى قال بَعْضهُمْ: «للنَّفْس مِنَ النَّقائِصِ، مَا لله مِنَ الكَمَالاتِ». والله أعْلَمُ. وأخلاق الرُّوحانيين: سلامةُ الصَّدْرِ، وسخاوة النَّفس، وحُسْنُ الخُلُق، والتواضعُ، والحِلْمُ، والتَّأنِّي، والسكينةَ، والطمأنينة، والشفقة والرَّحْمة، والسُّهُولة واللِّيُونة، وغَيْر ذلِكَ من الكَمَالاَتِ. فَمَن جَمَعَ هذِهِ العلوم؛ فَهُوَ النَّجْم الثَّاقِبُ. وَمَن اكْتَفَى بِأحَدِهَا فَهُوَ ناقِصٌ وسَاقِطٌ. فَمَنْ تَشَرَّعَ وَلَمْ يتحَقَّقْ فَهُوَ فَاسِقٌ. إذْ لاَ يَخْلُو مِنْ مُنَازَعة المقادير. واعتراضه على الواحد القادِر. ومَن تحقق ولَمْ يتشرَّعْ، فَهُو زِنْدِيق، بإبطالِهِ الأحكام، وتعطيل الحِكمة، وَمَنْ جَمَعَ بَيْنَهُمَا فَقَدْ تحقق، لقيامه بالقدرة مع الأدب والحِكمة. وفي التحقيق: ما ثَمَّ إلاَّ الحقيقة. إذْ لاَ فَاعِلَ إلاَّ الله، وَلاَ مَوْجُود سِواهُ. غَيْرَ أنَّ مَا يَبْرُزُ مِنْ عُنْصُرِ القدرة، إن كَان موافقاً للحكمة، سُمِّي شريعة وطاعةً، ويسمَّى أيْضاً حقيقة نُورَانية، وإن كَان مخالفاً، سُمِّي معصيةً. ويُسَمَّى أيْضاً حقيقة ظلمانية، فالكُلّ مِنْهُ وإلَيْهِ. قال تعالى وهو أصْدَق القائلينَ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾. وقَالَ تَعَالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾. وقال تَعَالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾. وقال سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾. فالحقيقة عين الشريعة، والشريعة عين الحقيقة. إذ كُلاً مِنْهُمَا مَأْمُور بِهِمَا، ولله درّ القائل في مَدْحِ النبيّ ﷺ حيْث قال:

يَا زَيْنَ الْخَلاَئِقِ يَا عَيْنَ الحقيقةْ حقّقت الحقائق وَكَانَتْ وثيقهْ

فالإنسان كلّه، باطِنهُ قدرة، وظاهره حكْمة، فإن بَرَزَ مِنَ القدْرةِ ما يُوافق الحِكمة كَان حقيقة نورانية، وكَانَتْ علامة على سعادة العَبْدِ، وإنْ بَرَزَ مِن القدرة ما يخالف الحِكْمَة كَان حقيقة ظلمانية، وكان علامَة على عقوبة العَبْدِ، إلاَّ أن يَظْهر حِلْمُهُ، وبالله التوفيق. وحَيْث اجْتَمَع في نبينا عليه الصَّلاة والسَّلامُ الحقائق، وعلم التشريع، وعلوم الأولين، والآخِرين، عَجزَ النَّاس عن معرفته، ولذلكَ قال: «**فَأَعْجَزَ الْخَلاَئِقَ**» أي: صَيَّرَهُم عاجزين عَنْ فَهْمِهِ. فَوَجَب الإذعَانُ والإنْقِيَاد لِحكْمِهِ. كَمَا انقادَتِ الملائكة بالسجودِ، حيْث عجزَتْ عَنْ إدْرَاكِ عِلْمِهِ. وقد قالت الصحابة رضي اللَّهُ عَنْهُم، لمَّا رأوا الغَنَم سَجَدَتْ له في قِصَّة البُسْتَانِ: يا رسُول الله، نَحْن أحَقّ بالسُّجُودِ لكَ مِنْهَا. فقال ﷺ: «**لو كَان أحد سَجَدَ لأحد أو لَوْ أمَرْتُ أحَداً أن يَسْجُد لأحَدٍ، لأمَرْتُ الْمَرْأة أن تَسْجد لِزَوْجِهَا**». فالسُّجُود إنَّما يكُونُ لله. وأمَّا آدَمُ، فَكَانَ قِبْلَةً. والمقصود بالسجودِ هو الله الَّذي أمَرَ بِهِ. ثم قرَّر العَجْزَ

المتقدم وبيَّنَهُ بِقَولِهِ «وَلَهُ» أي وَعَنْهُ «تَضَاءَلَت» أي تقاصَرَتْ وتَصَاغَرَتْ، أو تلاشَتْ واضمحَلَّتْ «الْفُهُومُ»: جمع فَهْم. أيْ فُهُوم العِبَادِ، فَلَمْ يَقْدِرْ أحَدٌ أن يَفْهَمَ ما خَصَّهُ الله بِهِ مِنَ الأسْرَارِ الإلَهيَّة، والمَواهب الباطنية؛ لأنهم لَمْ يَرَوْا إلاَّ خَيَالهُ الظَّاهِر. وأمَّا الباطن فلَمْ يَعْلمه إلاَّ خالقهُ الَّذي خصَّه الله بِهِ. وفي بَعْضِ الأحاديث: «**والله ما عَرَفَنِي حقًّا غَيْر رَبِّي**». ولله در البوصيري حيْث قال:

وكَيْفَ يُدْرِكُ فِي الدُّنْيَا حَقِيقَتَهُ قَوْمٌ نِيَامٌ تَسَلَّوْا عَنْهُ بِالْحُلُمِ

ولذلِكَ قال الشَّيخ رضيَ الله عَنْهُ: «فَلَمْ يُدْرِكْهُ مِنَّا» معْشر الخلائق. «سَابِقٌ». عَلَيْهِ في مظهرِهِ الشخصي. «وَلاَ لاَحِقٌ» بَعْد وجودِهِ الحِسِّي. بل كلهم كلَّتْ فُهُومُهُمْ، وتَقَاصَرَتْ عُلُومُهُمْ عَنِ الإحاطَة بالحقيقة المحمديَّة. ويحتمل بالسباق: مَن سَبَق في زمانه عليه الصَّلاة والسلامُ. كالصحابة رضي الله عَنْهُمْ. وباللاَّحق. مَنْ أتَى بَعْدهُمْ. إذ كلهم سواء في العَجْز عن إدراكِهِ ﷺ. ولذلكَ قال أويس القرْنِي: «والله ما رأى أصحاب محمد من محمد ﷺ، إلاَّ قشرة الظَّاهِرِ، وأما الباطِنُ فلم يعرفْهُ أحَدٌ. فقيل لهُ: وَلَوْ ابن أبي قحافة. قال: ولو ابن أبي قحافة. والمرادُ: نَفْيُ الإحَاطَةِ بمعرفة سرّهِ عليه الصَّلاة والسلامُ. وأمَّا إدراك البَعْضِ، فَلَهُمْ فِي ذلِك نَصِيبٌ، على قدر تَفَاوُتهم في معرفَةِ الله. وكذلك الأولياء رضيَ الله عَنْهُمْ، فمنهم مَن يُدْرك شيئاً مِنْ سِرّه عليه السلامُ، ومنهم مَن يُدْرك رُوحَهُ. ومِنْهُمْ مَن يُدْرك عَقْلَهُ، ومِنهُمْ مَنْ يُدْرك نَفْسه عليه الصلاة والسلامُ. فأهْل الرسُوخ والتمكين، يُدْركون سرَّه عليه الصَّلاة والسلامُ. وَلاَ يغيب عنهم طرفة عيْنٍ. كالْمُرْسِي وأمثالِهِ. وأهْلُ الشُّهُودِ والعيَانِ مِنَ السَّائرينَ، يدْركون روحَهُ عليه الصلاة والسلامُ. وأهْل المُرَاقبة مِنْ أهل الإستشراق، يُدْركُون عَقْلهُ عليه الصلاة والسلامُ. وأهْل الحجاب من أهْل الدَّليل والبُرْهان، إنَّما يُدْركُونَ نَفْسَهُ ومَظْهَرَهُ الشخصي. فيرونه مُحَيَّزاً في صُورتِهِ التي كَانَ عليها ﷺ في الدُّنْيا، مناماً أو يقظةً، على قَدْرِ فَنَائهم فيه ﷺ؛ وهُمْ على مراتب: وأما تمثيل بَعْضهم له، كالخروبي، ومن تبعهُ لهذا الحديث، بالصحابة رضي الله عَنْهُم. فلعَلَّ ذَلِك كان في زمانِهِ عليه الصَّلاة والسلام. والله أعْلَمُ.

وقَدْ سَمِعْت شيخ شيخنا مَوْلاَي العربي يقول: لقِيَنِي عالِمَانِ من علمَاءِ فاس بِمَسْجِدِ الْقَرَويين. فَقَالاَ لي: كَيْف يقول أبُو العباس المُرْسي: «مَا غَابَ عَنِّي رسُولُ الله ﷺ طرفَة عَيْنٍ». كَيْف يكون ذلِكَ؟ فقال رضي الله عَنْهُ: قلتُ لَهُمْ: «يَا هؤلاءِ،

أُولَئِكَ السادة، كَانَتْ أفكَارُهم فِي عَالَمِ الملكوت، وهو عالَمُ الأرواح، وفيه أرْواح الأنبياء وغَيْرهم، ولَمْ تَكُنْ أفْكَارُهُمْ فِي عَالَمِ الأشْبَاحِ، وهُوَ عَالَمُ المُلْك. قال: ثم قلتُ لهُمْ: وهَلْ تَدْرُونَ أيْن هو عَالَم الأرواح؟ عَالم الأرْواحِ هو حَيْث عالم الأشباح، ثم قمتُ عَنْهُمْ» اهـ. قُلْتُ: الآن المحلّ واحد، وإنما تختلف النَّظرة، فأهل البصيرة لاَ يَرَوْن إلاَّ الملكوت؛ وهو عَالَمُ الأرواحِ، وأهْل البَصَرِ، لاَ يَرَوْنَ إلاَّ المُلْكَ؛ وهو عَالَمُ الأشباحِ. وقد أشار إلى ذلِكَ الشيخ بقولِهِ: «فَرِيَاضُ» جَمع رَوضٍ؛ وهو محلّ النّزْهة، لاشتمالِهِ على نُوَّارٍ وأزْهار، ومياه وخضرة. «المَلَكُوتِ» هو في اصْطلاحِ الصُّوفية، ما يُدرَكُ بِالبَصِيرَةِ والعلم. كما أنَّ المُلْكَ ما يُدْرَكُ بالبَصَر والْوَهْم. أوْ تقولُ الملكوتُ: مَدْركُ أهْل الجَمْع. والمُلْكُ: مَدْركُ أهْلِ الْفَرْقِ. أوْ تقولُ: المُلكُ مَا ظَهَرَ. والمَلَكُوتُ مَا بَطَنَ. فَالْمَلَكُوت: مَدْرك أهْل الشهود والعيان. والمُلْكُ: مَدْركُ أهْل الدَّليل والبُرْهَانِ. «بِزَهْرِ» جَمْع زهرة؛ وهي النّوار التي تُفْتحُ فِي زَمانِ الرَّبيع. «جَمَالِهِ» ﷺ «مُونِقَةٌ» أيْ معجبَة، ورياض الملكوت، مِن إضَافَة المشبَّهِ بِهِ لِلْمُشَبَّهِ. شَبَّهَ الملكوت الَّذي هو محلّ نزهةِ العارفين بِرياضٍ مشتملةٍ على أزْهارٍ ونُوَّارٍ وخُضْرَة وجَمَال، لا يَتِمُّ جَمَالُهَا، وَلاَ يظهرُ نوارها إلاَّ باتباع الشريعة المحمَّدية. وإلاَّ كَانَتْ حقيقة ظلمانية، فالكَوْن الَّذي هو المُلْك كُلُّه ظلمة. وإنما أناره ظهور الحقّ فيه. فَصَارَ كُلُّهُ نوراً. وَمَنْ لَمْ يَدْرك نُورَ الحقّ فِيه، صار في حقِّهِ ظُلْمَةً. وكَانَ مُلْكاً. وَلاَ يُمْكِن أنْ يَظهر الحق فيه إلاَّ بالسلوكِ على الشريعة المُحَمَّدية. على يَدِ شيْخ عَارفٍ بدقائقها وأسرارها وحقائقها الظَّاهرة والباطنة. وإلاَّ بقي مَعَ ظُلْمَة الأكْوَانِ، وسِجْن الأوْهَامِ. «وَحِياضُ» جَمْع حَوْضٍ؛ وهو محلُّ اجتماعِ الْمَاءِ كَالصَّهْرِيجِ. «الْجَبَرُوتِ»: وهو ما يُدْرَكُ بِالْعَقْلِ والفَهْمِ، أو بالبَصيرة والْعِلْم. لكن في ثاني حَالٍ، أيْ بَعْدَ مَعْرفة المَلَكوتِ.

والحاصِلُ: أنَّ المُلْكَ والمَلَكُوتَ والجَبَرُوتَ مَحَلُّهَا واحِدٌ؛ وهو الوجود الأصْلِي؛ والْفَرْعِي، لكن تختلِف التسْمية، باختلافِ النظرةِ. وتختلف النَّظْرة، باختلاف التَّرَقي في المَعْرفة. فمَن نَظَر الكَوْنَ وَرَاءَه كَوْناً مُسْتَقِلاً بِنَفْسِهِ قَائِماً بِقدرةِ الله. ولَم يُكْشَفْ لَهُ عَنْ رُؤْيَةِ صَانِعِهِ فيهِ، سُمِّيَ فِي حَقِّهِ مُلْكاً؛ لظُهُورِ تَصَرُّفِ الْقُدْرَةِ فِيهِ، ووجُودِه؛ وهما لاَ حقيقة لَهُمَا عِنْدَ المحققينَ. ولذلك لَمْ يُدْرِكْهُ الشيخ رضي الله عَنْهُ. وَكَانَ صَاحِبُ هذِهِ الرُّؤْيَةِ مَحْجُوباً لِوُقُوفِهِ مَعَ الْوَهْم، وَمَنْ فَتَحَ الله بصيرتَهُ، ونفَذَ إلى شُهُودِ المُكَوِّنِ فِي الْكَوْنِ، أوْ قَبْلَهُ، سُمِّيَ فِي حَقِّهِ مَلَكُوتاً. وَكَانَ صاحِبُ هذِهِ الرُّؤْيَةِ عَارِفاً مفتوحاً عَلَيْهِ. فَإن نَفَذَتْ بصيرتُهُ، إلى شهود أصْل الأُصُولِ والْفُرُوع؛ وهي

العظمَة الأزلية اللطيفية، قَبْلَ أن تتجلَّى وتُعرف. وقد أشار إلَيْهَا ابن الفارض بقولِهِ:

صَفَاءٌ وَلاَ مَاءٌ وَلُطْفٌ وَلاَ هَوَى ... ونُورٌ وَلاَ نَارٌ، وَرُوحٌ وَلاَ جِسْمُ
تَقَدَّمَ كُلَّ الْكَائِنَاتِ حَدِيثُهَا ... قَدِيماً وَلاَ شَكْلٌ هُنَاكَ وَلاَ رَسْمُ
وقَامَتْ بِهَا الأَشْيَاءُ ثَمَّ لِحِكْمَةٍ ... بِهَا احْتَجِبَتْ عَنْ كُلِّ مَنْ لاَ لَهُ فَهْمُ

سُمِّيَ ذلِكَ جَبَرُوتاً، وَمَنْ نظر إلى نفوذ الرَّحْمَةِ السَّابِقة، فِي الأشياءِ كلّها، وهي نِعْمة الإلْحَاد ونعمة الإمداد. سُمِّيَ ذلِكَ رحموتاً. فصارت العوالم أربعةً: مُلْكاً ومَلَكُوتاً، وجَبَرُوتاً، وَرَحَمُوتاً. وقَدْ نَظَمْتُ قَصيدة تليق هُنَا، وهذا بَعْضٌ مِنْهَا، فَقُلْتُ:

إذَا حبست نَفْسٌ فِي سِجْنِ الْهَوَى الَّذي ... تَقَيَّدَ بِهِ الْعَقْلُ فِي قَهْرِ قَبْضَةِ
وأشْغَلَهَا عِلْمُ الصُّوَانِ لِحِكْمَةٍ ... فَلَمْ تَرَ إلاَّ الْكَوْنَ فِي كُلِّ وِجْهَةِ
فَذَلِكَ عَيْنُ الْمُلْكِ وَهُمْ ثُبُوتُهَا ... وَنَاظِرُهُ الْمَحْجُوبُ فِي سِجْنِ ظُلْمَةِ
وَإنْ نَفَذَتْ رُوحُ الْمُقَدَّسِ سِرُّهُ ... إلَى دَرْكِ سِرِّ الذَّاتِ خَلْفَ الأَنِيَّةِ
وَنَعْنِي بِهَا سِرَّ الْمَعَانِي الَّذِي سَرَى ... فِي كُلِّ الأَوَانِي عِنْدَ أهْلِ الحقيقةِ
فَذَا مَلَكُوتُ الله يُسْمَى لِوَسْعِهِ ... وعَارِفُهُ يَحْظَى بِفَتْحِ بَصِيرَةِ
وَإنْ سَبَحَتْ بَحْرَ اللَّطَافَةِ والْهَنَا ... وأصْل الأصول والفروع بفكرةِ
فَذَا بَحْرٌ مَا لاَ يحيطُ بِهِ الْفَتَى ... ولَكِنْ يخوفُ مِنْهُ فِي ظَرْفِ لُجَّةِ

والعَوَالِمُ[1] إنْ حققتها خمسة: ملكاً وملكوتاً، وجبروتاً، ولاهوتاً، ورَحمُوتاً. بإضافةِ الْفُرُوع إلى الأصول وفي ذلك يقول القائل:

وَإنْ أُلْحِقَتْ كُلُّ الْفُرُوعِ بِأَصْلِهَا ... وَخَاضَتْ بِحَارَ الْجَمْعِ فِي كُلِّ لَحْظَةِ
فَذَاك الَّذِي يُسْمَى بِلاَ هُوتِ سِرِّه ... وَعَارِفُهُ حَقًّا يُهَنَّأُ بِمِسْكَنَةِ
وَإنْ نَظَرَتْ أهْلَ الإلْحَادِ بِرَحْمَةٍ ... وَجَرْيَهَا فِي الأَشْيَاءِ طُرًّا بِنِعْمَةِ
فَذَاكَ رَحموتاً فيه يَدْرِيه عَارِفٌ ... تَخَلَّقَ بِاسْمِ الْحَقِّ فِي كل نِسْبَةِ

والتَّحقيق: أنَّ مَن دَخَلَ عَالَمَ التكوين؛ ما ظَهَرَ مِنْ حِسِّهِ، يُسَمَّى مُلْكاً، وَمَا

(1) والعوالمُ إنْ حَققتها، إلى يقول القائل: كَلاَم النَّاسخ عبد ربّه: العمراني الخالدي عبد السلام، لربط الكَلاَمِ مَعَ بَعْضِهِ، لأني وَجَدتُهُ، خَطَأً مِنَ النُّسَّاخِ، لاَ مِنْ صَاحِبِ الشَّرْحِ اهـ.

بَطَنَ مِنْ أَسْرَارِ الْمَعَانِي يُسَمَّى مَلَكُوتاً. وما لم يَدْخُلْ عَالَمَ التكوينِ مِنَ الأَسْرَارِ الباقية على أَصْلِهَا يسمَّى جَبَرُوتاً، وَلاَ يَفْهَم هذَا، إلاَّ من دَخَلَ مَقَامَ الإِحْسَانِ، وخاضَ بَحْرَ الْمَعَانِي، وإلاَّ فحسبُهُ التَّسْلِيم لأَرْبَابِهِ. واعْلَمْ أنَّ شهودَ عَالَمِ المَلَكُوتِ يحجب عن شهودِ عَالَمِ المُلْكِ، وشهود عالم الجَبَروت يحجب عن شهود عَالَمِ الملكوتِ. وكل من ترقى إلى مقام، غابَ عَمَّا قَبْلَهُ، إلاَّ الرَّحموتُ، فيمكن شهوده مع العَوَالم كُلِّهَا. والله تعالى أَعْلَمُ.

والحاصل: أنَّ بَحْرَ الجَبَروت، فَيَّاضٌ بِأنوارِ الملكوتِ. وأنوار الملكوت، أَصْلُها القبْضة النورانية المحمدية. فكل من بَرَزَ مِنَ الجَبَروتِ، فالنور المحمدي واسطة فيهِ، وأَصْل فيه. وهذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: «وَحِيَّاضُ الْجَبَرُوتِ بِفَيْضِ أَنْوَارِهِ ﷺ «مُتَدَفِّقَةٌ»: أَيْ مُنْصَبَّة بِقُوَّةٍ. فالتدفق: هو الإِنْصِبابُ بِشِدَّةٍ، شَيْئاً فشيئاً، إنَّه شَبَّهَ بَحْرَ الجَبَرُوت بحياضٍ مملوءَة بِمَاءِ الْغَيْبِ. تنصَبُّ إلى عَالَمِ الشَّهَادَةِ، شَيْئاً فشيئاً، على حَسَبِ الإرادة والمشيئة. ولمَّا كان نبيُّنا ﷺ، هُوَ سَبَبٌ فِي إبرازِ تِلْكَ الأَنْوارِ، أُضِيفَتْ إليه ﷺ، إضافَةَ المُسَبَّبِ إلى السَّبَبِ. وإن كان الكل جبروتياً لاهوتياً؛ لأنَّ مَنْ لَمْ يشكرِ الواسطة، لم يشكرِ الموسوط. وَمَنْ لَمْ يشكرِ النَّاسَ، لَمْ يَشْكُرِ الله. فأهل الجَذْبِ والفَنَاءِ يَغيبُونَ عَنِ الواسطةِ. فَلاَ يَشْهَدُونَ إلاَّ الجَبروت. وأهْل البقاء لكمالهم، يشْهَدُونَ الواسطة والموسوط. وَيُعطون كلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَلاَ يحجبهم فَرْقُهُمْ عَنْ جَمْعِهِمْ، وَلاَ جَمْعهم عَنْ فَرْقِهِمْ. نَفَعَنَا الله بِهِمْ، وخَرَطَنَا فِي سِلكهم آمين. وإنما اختارَ التشبُّهَ بالحياضِ، ولم يشبه بالبحارِ، مُنَاسَبة لِلرِّياضِ؛ لأنَّه لمَّا شَبَّه الملكوت بالرياضِ، نَاسَبَ أن يشبِّهَ الجَبَرُوت بالحِيَاضِ، إذ لاَ يقوم الرياض إلاَّ بالحِيَاضِ. كَمَا لاَ يقوم الملكوت، إلاَّ بالجبروت، بل هو عنه كما تقدَّم، لكنَّ السالك يترقَّى بِهِ إلى الجبروت. فَوَجب إثباتهُ ثمَّ مَحْوُهُ. الأَكْوَان ثابتة بإثباتِهِ، مَمْحوَّة بِأَحَدية ذَاتِهِ، وإلَى إثبات واسطَتِهِ ﷺ، أشَارَ بِقَوْلِهِ: «وَلاَ شَيْءَ» مِنَ الكَائِناتِ «إلاَّ وَهُوَ بِهِ مَنُوطٌ» أي متعلق وَمُتَّصِل اتصال الْمَوْسُوطِ بِالْوَاسِطَةِ، فَكُلُّ مَن بَرَزَ من عَالَمِ الْغَيْبِ، فَنبيُّنَا وَمَوْلاَنَا محمَّد ﷺ واسطة فِيهِ. كما وَرَدَ في بعض الأخبار: «لَوْلاَ محمَّدٌ مَا خَلَقْتُ عَرْشاً وَلاَ كُرْسِيًّا، وَلاَ سَمَاءً وَلاَ أَرْضاً، وَلاَ جَنَّةً وَلاَ نَاراً». وفي بُرْدَةِ البوصيري: لَوْلاَهُ لَمْ تُخْرَج الدُّنيا مِنَ العَدَمِ. ثم ذكر علة تعلق الأشياءِ بِهِ ﷺ فَقَالَ: «إذْ لَوْلاَ الْوَاسِطَةُ» الَّذِي هو نبيُّنا ﷺ. «لَذَهَبَ كَمَا قِيلَ الْمَوْسُوطُ»: أي لَوْلاَ تَوَسُّطهُ ﷺ، بيْن الله وخلْقِهِ؛ لذَهَبَ المَوْسوطُ الذي هُوَ الكَوْنُ. أي لَبَقِيَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْه مِنَ العَدَمِ. فإذ تعليلة، والموسوطة فاعل

لَذَهَبَ. والجملة: كما قيل معترضة بيْن الفِعل والفاعِلِ، لأجْل القافية. إذ لَوْ قدّم على المجرور، لاخْتَلَّ الوَزْنُ بالطاءِ. والتقدير: إنما تعلقت الأشياء بهﷺ؛ لأنّه واسطة. ولولاَ الواسطة لذَهَبَ المَوْسُوطُ. كما هو قول مشهورٌ. ثم ذكَرَ معمول قوْله ﷺ، وهو المصدر النَّوْعي فقال: «صَلاَةً» أي صَلِّ صلاةً عظيمة كاملةً «تَلِيقُ» أي بعظمتِكَ وكمالكَ؛ وهذه الصَّلاة لاَ يعلم قدرَهَا إلاَّ الله سبحانهُ وتعالى، وتكونُ هذه الصَّلاةُ واصلة «بِكَ مِنْكَ إلَيْهِ» بلاَ واسِطةِ أحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ وَلاَ شكَّ أنَّ الهدايا والتُّحَف الّتي تَصِلُ إلى الوُزَراءِ بِلاَ واسطةٍ، بل مِن يَدِ المَلِكِ إلى الوَزِير، أعْظَمُ وأتَمُّ مِمَّنْ تَصِل على يَدِ الوَسَائِطِ. ثم ذكر عِلَّةَ تعظيم هذه الصَّلاة فَقَالَ: «كما هُوَ أهْلُهُ»: أيْ لأجْلِ ما هو مستحقه ﷺ مِنَ التعظيم والإجْلاَلِ فَالْكَافُ تعليلية، كقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾. ثم ذكَرَ وجْهَ اسْتحقاقِهِ ﷺ، لهذه الكرامة فقال: «اللَّهُمَّ»، لَيْسَت هيَ للدّعاءِ، وإنَّما هي مُبَالغة فِي الإقرارِ. كقوله في الجواب: اللَّهُمَّ نَعَمْ. مبالغة في تمكين الجواب في ذِهْنِ السَّامِعِ. فكأنه قال: أُقِرُّ وأتحقق، أنه ﷺ «سِرُّكَ» الخفِي الذي اختَصَصْتَ بِمَعْرِفتِهِ، أوْ سِرّكَ الَّذِي أوْدَعْتَهُ فِي هذَا الكَوْنِ، إذ هو عليه الصَّلاة والسَّلامُ، سرُّ الأسرار، وَمَنْبَع الأنْوارِ؛ ومنه انشقت الأسْرَار، وانفلقت الأنوار. «الجامِعُ» لِما افترق في غيرِه. فكَانَتْ روحانيته ﷺ، جامعةً لأوصافِ الكَمالاَتِ، وبشريتُه جامعةً لأنواع المحاسِنِ، وشريعتُهُ جامعةً لجَميعِ الشَّرائِعِ. وكتابُهُ جامعاً لسائر الكتب؛ وهو أيْضاً: يجمع النَّاس على الله، ويَدُلُّهُمْ على الجمعِ، ويحذِّرهُمْ منَ الفَرْقِ؛ «الدَّالُّ عَلَيْكَ» بأقوالِهِ وأفْعَالِهِ وأحْوالِهِ ﷺ؛ فكانَتْ خُطبُهُ ومَوَاعِظهُ تَرِقُّ مِنْهَا القُلُوبُ، وتَذْرِفُ مِنْهَا العُيُونُ. وَمَا بُعِثَ عَلَيْهِ السَّلامُ إلاَّ دالاً على الله. ومُعَرِّفاً بِهِ تَعَالى. فَمَا تَرَكَ شيئاً يجمع العباد على الله، إلاَّ دَالَّهُمْ عَلَيْهِ، وعَرَّفهم بِهِ. وَلاَ رَأى شيئاً يقطع عَنِ الله، إلاَّ حَذَّرَ العِبَادَ مِنْهُ. لَمْ يَأْلِ جُهْداً فِي نصح العِبادِ. وهَدْيهم إلى طريق الرَّشادِ، فَجَزاهُ الله عَنْه أحْسَنَ مَا جَزَى رَسُولاً عن قوْمِهِ، ونبيًّا عن أُمَّتِهِ، وبعد أن كَان عليه الصلاة والسلام دالاً على الله، كَانَ حَاجِباً من حُجُوبِ الحَضْرَةِ، لاَ يدخُلُهَا أحَد إلاَّ عَلَى يَدَيْهِ. فلذلِكَ قَالَ: «وَحِجَابُكَ» الذي يتوسَّطُ بَيْنكَ وبَيْنَ الدَّاخِلِينَ إلى حضرتِكَ. فكلُّ مَن دَخَلَ عَلَى يَدَيْه عليه السَّلامُ، وعظَّمَهُ، واتَّبَعَ سُنَّتَهُ. أدْخَلَهُ الحَضْرَة عَلَى نَعْتِ الْهَيْبَةِ والْوَقَارِ والأَدَبِ، فاسْتَقَرَّ فِي الحَضْرَة عَلَى الدَّوامِ، وكُلُّ مَنْ دَخَلَ مِنْ غَيْرِ بَابِهِ ﷺ، طُرِد، وعُوقِبَ، وفي ذلك يقول القائل:

وأنْـــتَ بَـــابُ الله أيُّ امْـــرِىءٍ ... وَافَـى مِـنْ غَـيْـرِ بَـابِـكَ لاَ يَـدْخُـلُ

وأيضاً: هو ﷺ، حجاب الأرواح عَنِ الهَلاَكِ، إذ مِنْ شَأْنِ الرُّوحِ أن تتطلع الخوض فِيمَا لا تقْدِرُ عليه مِن بَحْرِ الجَبَرُوتِ، فَكُلَّمَا هَمَّتْ بالخوض فيهِ، زَاجَرها عليه السلامُ، وعَاقَلَهَا بعِقَالِ الشَّرَائِعِ، ولذلكَ قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**تَفَكَّرُوا فِي آيَاتِهِ، وَلاَ تَتَفَكَّرُوا فِي مَاهية ذَاتِهِ**». إذْ كُنْه الرّبوبية محجوبٌ عَنِ العقولِ. فَلاَ سَبِيلَ إلى إدْراكِهِ، وَلاَ شَكَّ أنَّ الرُّسُلَ عليهم الصلاة والسلامُ، حُجُبٌ لقَوْمِهِمْ، ولكن المصطفى ﷺ، هو أعْظم منهُمْ، كَمَا قال الشيخ رضي الله عَنْهُ، ثم وصَفَه بشدَّةِ القرْبِ والأدبِ فقال: «الأَعْظَمُ الْقَائِم، لَكَ بَيْنَ يَدَيْكَ» أدَباً وتعْظيماً، وَوَاسِطةً بَيْنَكَ وَبَيْنَ خَلْقِكَ، وتَرْجُمَاناً فِي تبليغ أحْكامك. ثم شَرَعَ فِي الدُّعَاءِ باللَّحْقِ بِهِ؛ يكون على قَدَمِهِ، وهو أعْظَمُ الوِلاَيَةِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَلْحِقْنِي بِنَسَبِهِ» الطِّيني والدِّيني، وأرادَ دَوَامه على مُتَابَعتِهِ عليه السلامُ، وإلاَّ، فَلاَ يَنْفَعُ النَّسَبُ، مع عَدَم الأدَبِ، «وَحَقِّقْنِي» أي خَلِّقْنِي «بِحَسَبِهِ» أي بُخُلُقِهِ الحَسَبِ؛ وهُوَ مَا يَفْتَخِرُ بِهِ الإنْسَانُ مِنْ مَكَارِمِ الأَخْلاَقِ، وَأرَاد رضي الله عَنْهُ، أنْ يَكُونَ على قَدَمِهِ ﷺ، فإنَّ الأولياءَ رضِيَ الله عَنْهُمْ، منهم من يكون نوحياً، ومنهم من يكون إبراهيمياً، ومنهم من يكون موسوياً، ومِنْهُمْ مَن يكون عِيسَوِيًّا، ومِنْهُمْ من يكون محمَّدياً؛ وهو أعظمهُمْ لِجَمْعِهِ ما افترقَ فِي غَيْرِهِ. وقَدْ حَقَّقَ الله رَجَاءَهُ، وأجَابَ دُعَاءَهُ. فَقَدْ تغلغل رضِي الله عَنْهُ فِي عُلوم الْقَوْمِ، التي مَدَارها على التخلق بِأَخْلاَقِ الرَّحْمن، ونَالَ من ذَلِكَ الحَظَّ الأَوْفَرَ. . وقَدْ تقدَّم فِي تَرْجُمَتِهِ مِنْ كَلاَمِهِ مَا يُحَقِّقُ ذلِكَ، نَفَعَنَا الله بِمحبَّتِهِ آمين، وإنما عَبَّرَ بالتحقيقِ، دُونَ التخلُّقِ، لأنَّ التخلق يكون مُجَاهدةً وكَسْباً، والتحقق يكون غَرِيزةً وتَمَسُّكاً، ثم طَلَبَ مَعْرِفتَهُ عليه السَّلامُ، المعرفة الخاصَّة فَقَالَ: «وَعَرِّفْنِي إيَّاهُ». طَلَبَ معرفَتَهُ عليه السَّلام، قَبْلَ أنْ يطْلُبَ مَعْرِفَةَ الله؛ لأنه الواسطة، فَلاَ يَدْخُلُ على الله إلاَّ مِنْ بَابِهِ؛ لأنَّ مَنْ عَرَفَهُ عليه السَّلامُ، المعرفة الخاصَّة، بادَرَ إلى خِدْمَتِهِ ومَحَبَّتِهِ، فَيُدْخِلَهُ عَلَى رَبِّهِ بِنَفْسِهِ، أو بِشَيْخ يَهْدِيهِ إليه، وأتَى الشَّيخ رضيَ الله عَنْهُ، بضمير النبيّ ﷺ مُنْفَصِلاً، وإنْ كَان الاتِّصَالُ أرْجح عِنْدَ النّحَاة، أدباً مَعَ النَّبيّ ﷺ، إذ لَوْ قَالَ: وَعَرِّفْنِيهِ، كما هو الأرجَحُ، لكَان ضَمِيره عليه السَّلامُ، مُتَّصِلاً بِضَمِيرِ الشَّيْخ، فيفوتَهُ الأدَبُ، إذ المصطفى يَنْبَغي أنْ يكون غَيْرُهُ مُتَّصِلاً بِهِ، لاَ هُوَ متصلاً بِغَيْرِهِ. فَمَا أحْسَنَ أدَبَهُ! وأدقَّ نظرَهُ! ثم ذَكَر نتيجة المعرفة بِهِ عليه السَّلام فَقَالَ: «مَعْرِفَةً» كاملة، «أسْلَمُ بِهَا» أي بِسَبَبِهَا «مِنْ مَوَارِدِ الْجَهْلِ»: أي من الوقوع في شَيْءٍ مِنَ الْجَهْلِ. أيُّ جَهْلٍ كَانَ. فَالْوُرُودُ هُوَ الشُّرْبُ، والْمَوْرد هو محلُّ الشرب، ويُجمع على مَوَارد. شبَّه رضيَ الله عَنْهُ الجَهْلَ بِمَاءٍ قبيح، وسَألَ الله

تَعَالَى أن يُسَلِّمَهُ بمعرفَتِهِ عليه الصَّلاة والسَّلامُ، مِنَ الوُقُوع فِي مَشْرَبِهِ، أوْ فِي القُرْبِ مِنْهُ؛ وهو الشُّرْبُ مِنْ مَوَارِدِ الْعِلْمِ النَّافِعِ، ثمَّ ذَكَرَ ضِدَّه فَقَالَ: «وَأكْرَعُ»: أي أشْرَبُ على فَمِي مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ. فَالْكَرْعُ: هو الشُّرْبُ على الْفَم، بفعل المتعطش اللهفان «بِهَا» أيْ بِتِلْكَ المَعْرِفَةِ «مِنْ مَوَارِدِ» جَمع مَوْرِدٍ؛ وَهُوَ مَحَلُّ الشُّرْب. أي بتلك المعرفة مِنْ مَنَاهِلِ «الْفَضْلِ»؛ الَّتي هي العُلومُ اللدنية، والأسْرَارُ الرَّبَّانية؛ الَّتي تكونُ بالفَضْلِ والْمِنَّةِ، لاَ بِالكَسْبِ والْخِدْمَةِ، وَلاَ شكَّ أنَّ مَنْ عَرَفَهُ وَقَامَ بِوَاجِبِ حَقِّهِ، لاَ بُدَّ أنْ يَنْهَلَ مِنْ مَنَاهِلِهِ؛ وَيَرِدَ مِنْ مَوَارِدِهِ، ويأخُذ قِسْطَهُ من الْعُلوم التي عَلِمَها عليه السَّلامُ، بالْوَحي أوْ بِالإلْهَام «لأنَّ مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعْلَمُ، أوْرَثَهُ الله عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ». شبَّه الشَّيخُ رضي الله عَنْهُ الْعِلْمَ اللَّدُني بأبْجُرٍ عَذْبةٍ، يَرِد النَّاس مِنْها، وطَلَبَ مِنَ الله أنْ يَشْرَبَ مِنْهَا بِلاَ وَاسِطَةٍ، غَيْر واسطتِهِ عليه السَّلامُ، حتَّى تمتلىءَ عُرُوقُهُ وأضْلاَعُهُ وأوْصَالُهُ. «إذ القَنَاعَةُ مِنَ الله حِرْمانٌ». والْعِلْمُ لاَ حد له حتَّى يُشْبَعَ مِنْهُ. «وَقُل رَبِّ زِدْنِي عِلْماً». ثمَّ طَلَبَ السلوكَ إلى حَضْرَة الْقُدْسِ، ومَحَلّ الأُنْس فَقَالَ: «وَاحْمِلْنِي عَلَى سَبِيلِهِ»: أي طريقه الأقْوَم، «إلَى حَضْرَتِكَ»: أي إلى العَكُوفِ فِي مشاهدة جَمَال حَضْرَتِكَ. أرَاد رضي الله عَنْهُ، أن يَكُون فِي سَيْرِهِ محمُولاً على كَاهِلِ السُّنَّةِ المحمَّدية، لا حامِلاً مَتْعُوباً؛ لأنَّ من حَمَلتْه العِنَاية الرَّبَّانية، قَطَعَ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مَا لاَ يَقْطعُهُ غَيْرُهُ فِي سِنِينَ، وهُوَ لاَ يَشْعُرُ. وَلَيْسَ مَنْ كَانَ مَحْبُوباً، كَمَنْ كَانَ مُحِبًّا، وَلاَ مَنْ كَانَ مَجْذُوباً كَمَنْ كَانَ سَالِكاً. «الله يجتبي إلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ ويَهْدِي إلَيْه مَنْ يُنِيبُ». لَوْ كُنْتَ لاَ تَصِلُ إلَيْهِ إلاَّ بَعْدَ مَحْوِ مَسَاوِئِكَ، وقطع دعاويكَ، لاَ تَصِلُ إلَيْهِ أبَداً، ولَكِن إذا أرَاد أنْ يُوَصِّلكَ إلَيْهِ، غَطَّى وَصْفَكَ بِوَصْفِهِ، وَنَعْتَكَ بِنَعْتِهِ، فَوَصَّلَكَ بِمَا مِنْهُ إلَيْكَ، لاَ بِمَا مِنْكَ إلَيْهِ، والحَضْرَةُ: هِي حضُورُ القَلْبِ مَعَ الرَّبِّ، أو حُضور الرُّوح أو السِّرِّ مَعَ الحقِّ، فهي إذاً على ثلاثةِ أقْسَام: حَضرة القلب للطالبين، وحَضرَة الرُّوحِ للسَّائرين، وحَضْرة الأسْرار للواصلينَ. أوْ تقول: حضرة القلوب لأهل الْمُرَاقبة، وحضرة الأرواح لأهل المشاهدة، وحضْرة الأسْرَارِ لأهل المُكَالمَةِ. أوْ تقول: حضرة القلوبِ لأهل البُرْهَان، وحَضْرَة الأرْوَاح لأهْل الْعِيَانِ، وحضْرَة الأسْرَارِ لأهل التمكين. والحَاصِلُ: أنَّ المُرِيدَ ما دَامَ محجوباً على شُهُودِ نَفْسِهِ. وهو يُجاهِد في حُضُور قَلْبِهِ مَعَ رَبِّهِ؛ فهُوَ في حَضرةِ القُلُوبِ، وإذا افتتح عليْهِ، غابَ بِشُهُودِ رَبِّهِ عن شُهُود نَفْسِهِ. أوْ تقول: غَابَ بِجمعِهِ في فَرْقِهِ؛ فَهُو فِي حَضْرَة الأرواح. وإذا تمكَّنَ ورَجَعَ إلى البَقَاءِ بحَيْث لا يحجُبُه جمعه عَنْ فرقِهِ، وَلاَ فَرْقهُ عن جَمْعِهِ؛ فهُوَ في حضرةِ الأسْرَارِ، وحِكْمَةُ ذلِكَ، أنَّ الرُّوحَ مَا دَامَتْ

مُنهمكةً في الْغَفْلَةِ سُمِّيَتْ نَفْساً. وَلَمْ تدخل الحضرة قط. فإذَا تَيقظتْ أو اسْتَقَامَتْ، وجَعَلتْ تُجَاهِدُ نفسها في الْحُضُورِ، سُمِّيَتْ قَلْباً، لتقلبها مِنَ الغَفْلَةِ إلى الحضرة، ومِنَ الحَضْرَةِ إلى الْغَفلة، أوْ لتقلبها من الطاعة إلى المعصية، ومِنَ المعصية إلى الطَّاعةِ، وإذا وصَلَتْ إلى مقام الإحْسَانِ، وَفُتِحَ علَيْهَا فِي مَقَامِ الْعِرْفَانِ، سُمِّيَتْ رُوحاً، لراحتها مِنْ تَعَبِ الحجابِ، وَدُخُولِهَا مَعَ الأحْبَابِ، وإذَا تأدَّبَتْ وتهذَّبَتْ وجُليت عين بصيرتها، مِن غَبَشِ الحسّ، سُمِّيَتْ سِرًّا لخَفَائِهَا عن مداركِ العُقُولِ، أوْ لخفاءِ صَاحِبِهَا عن فَهْمِ النَّاسِ. إذْ لا يعرف حقِيقَةَ الوليّ، إلاَّ مَوْلاَه الكَبير العليّ. أوْ مَنْ دَخَلَ مَعَهُ فِي الوِلاَيَةِ، فأُضِيفَتْ الحَضْرَة إلى الرُّوح، مَعَ اخْتِلافِ تَسْميتها، باختلافِ تطوّرها وتَرَقِّيها. فقيلَ حَضْرة القلوب ما دامَتْ قَلْباً، ثم حَضرة الأرواح، ما دَامَتْ روحاً، ثم حَضْرَة الأسْرَار، ما دَامَتْ سِرًّا. ولمَّا كَانَ الْحَمْلُ إلى الحَضْرَةِ لاَ يكْمُلُ إلاَّ إذا صحبَتْهُ النُّصْرَةُ، سأل ذلكَ الشَّيخُ فَقَالَ: «حَمْلاً مَحْفُوفاً بِنُصْرَتِكَ»: أيْ يكون ذلك الحملُ مُدَوَّراً بنُصْرَتِكَ. أي حُفَّتْ بِهِ النُّصْرَة مِن كل جَانِبٍ، وَلاَ شَكَّ أنَّ الْعَبْدَ إذَا صحبتْهُ النَّصْرَةُ والمعرفة فِي سَيْرِهِ، بَلَغَ القصد والمَأمُولَ، ورَتَعَ في أقرب سَاعَةٍ فِي حَضْرة الْوُصُولِ. ولله دَرُّ القائِلِ:

إذَا كَانَ عَوْنُ اللَّهِ لِلْمَرْءِ قَاصِراً ... تَيَسَّرَ لَهُ مِنْ كُلِّ عَوْنٍ مُرَادُهُ

وإنْ لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ الله لِلْفَتَى ... فأكْثَرُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ

ثُمَّ ذَكَرَ ثمرة الْوُصُولِ؛ وهِيَ الْغَيْبَةُ عَنِ السِّوَى، فَقَالَ: «وَاقْذِفْ»: أي ارْمِ «بي عَلَى الْبَاطِلِ»؛ وهو ما سوى الحق تعالى. وفي الحديث: «أصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ، كَلِمَة لَبِيدٍ:

ألاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ ... وَكُلُّ نَعِيمٍ لاَ مَحَالَةَ زَائِلُ»

شَبَّهَ السِّوى الذي هو الباطِل، بحيوانٍ له دِمَاغٌ، فإذَا أُصيبَ دِمَاغُهُ ماتَ. ولذلكَ قَالَ: «فَأَدْمَغُهُ»: أي فأصيب دِمَاغَهُ. فَيَتَشَتَّتُ ويَضْمَحِلُّ. وإذَا زَهَقَ الباطِلُ جَاءَ الحقُّ. «وقُلْ جَاء الْحَقُّ وزَهَقَ الباطِلُ، إنَّ الباطِلَ كَانَ زَهُوقاً». «فَذَلِكُمُ الله رَبُّكُمُ الحقُّ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إلاَّ الضَّلاَلُ». ولاَ شَكَّ أنَّ مَا سِوَى الله تَعَالىٰ مفقود عِنْدَ المحققينَ. أبَى المحققونَ أن يشهدوا مَعَ الله غَيْرهُ. إذْ مُحَالٌ أنْ تَشْهَدَهُ وتَشْهَدَ مَعَهُ غَيْرُهُ. مَا حَجَبَكَ عَنِ الحقِّ وجود مَوْجودٍ مَعَهُ، إذْ لاَ شَيْءَ مَعَهُ، وإنَّما حَجَبَكَ تَوَهُّمُ مَوْجُودٍ مَعَهُ. مُذْ عَرَفْتُ الإلَهَ لَمْ أرَ غَيْرَه. وكَذَا الْغَيْرُ عِنْدَنَا مَمْنُوعٌ. مُذ

تَجَمَّعتُ مَا خَشيتُ افْتِرَاقاً، فأنَا الْيَوْمَ واصلٌ مَجْمُوعُ. وإذا ذَهَبَ عن القَلْبِ شُهُود السِّوَى، غَرِقَ في بِحَارِ الوحدة. ولذلِكَ قال: «وَزُجَّ بِي»: أي أدْخِلْنِي. «فِي بِحَارِ الأَحَدِيَّةِ»، فَالزَّجُّ فِي اللُّغَةِ: هُوَ الإدخالُ، قالَ الشَّاعِر:

أنْـحَـلَـنِـي الْـحُـبُّ فَـلَـوْ زُجَّ بِـي ... فِـي مُـقْـلَـةِ الـنَّـائِـمِ لَـمْ يَـنْـتَـبِـهْ

كَـانَ لِـي فِـيـمَـا مَـضَـى خَـتْـمٌ ... والآنَ لَـوْ شِـئْـتُ تَـمَـنْـطَـقْـتُ بِـهْ

والأَحَدِية مُبَالغة في الوحدةِ، أي أدْخِلْنِي في بِحَارِ أَحَدية ذَاتِكَ وصفاتكَ وأفْعَالِكَ، ولذلِكَ عَبَّرَ بالجَمْعِ، إذ كلّ بَحْرٍ مستقلٌ بِنَفْسِهِ، فَمَنْ غَرِقَ فِي بَحْرِ توحيد الذَّاتِ، غَابَ عَنْ نَفْسِهِ وعن شُهُود السِّوَى، وبقي بوجودِ رَبِّهِ، ومَنْ غَرِقَ في بَحْرِ تَوْحِيدِ الصِّفَاتِ، غَابَ عن صفة نفسِهِ، وصفة غيْرِهِ، وبقي بصفات ربه. ومن غرق في بحر وحدة الأفعال غاب عن فعله وفعلَ غيره، وخرجَ من تدبيرِهِ واختيارِهِ. إذْ لاَ يدبّر الإنسان مَا يَفْعَل غَيْرَهُ. وإنَّما عَبَّرَ بالأحدية التي هي أبلغ من الوحدانية؛ لأنَّ المراد هنا مِنَ التوحيد، ما كان ذوقاً وحالاً ومقاماً، لاَ مَا كَانَ علماً واعتقاداً، إذْ ذَلِكَ من شأْنِ أهْل الحِجَابِ: أهْل الدَّليل والبُرْهانِ. وفي هٰذَا المقام، قال شيخ شيوخنا، سيّدي عبد الرحمٰن المجذوب رضي الله عنه:

يَـا قَـارِئِـيـنْ عِـلْـمِ الـتَّـوْحِـيـدْ ... هُـنَـا الْـبُـحُـورْ إلـي تِـغْـبِـي

هٰـذَا مَـقَـامْ أهْـلِ الـتَّـجْـرِيـدْ ... الْـسَـوَاقِـفِـيـنْ مَـعَ رَبِّـي

إذْ لا يخوف هٰذِهِ البُحُورَ، إلاَّ أهْل التَّجريد والحُضُور. وأمَّا مَن تنشب ظاهره بكثرة الأسْبَابِ، فَلاَ يَطْمَع أن يُفْتَحَ لهُ هذِهِ الأبواب. وقد سَمِعْتُ شَيْخَنَا البُوزَيْدِي رضي الله عَنْهُ يقولُ: معرفة المتَسبِّب، لا تَقْرُبُ من مَعْرِفَةِ المُتجرّد. وقال أيْضاً: المتجرّد النَّاقِصُ، أفضل من المتسبِّب الكامل يعْني المتهذّب. إذِ المتسَبِّبُ لاَ يَخْلُو بَاطِنُهُ مِنْ تَكْدير. وسَمِعْتُ شيخ شيخنا مولاَي العربي الدِّرقاوي رضي الله عنه يقول: فكرة المتجرّد، أمْتَعُ مِنْ فِكْرَةِ المتسبِّب. أيْ أصْفَى وأبْلَغُ؛ لأنَّها ناشئة عن الصَّفَاءِ، إذ صَفَاءُ الباطِنِ، من صَفَاءِ الظَّاهِرِ، وتكْدِيرُ الباطن، من تكديرِ الظَّاهِرِ. وهٰذَا كُلّهُ في حقّ السَّائرينَ. وأمَّا الواصلونَ المتمكّنُونَ فَلاَ كَلاَمَ عَلَيْهم. إذْ أمرهم كُلّه بالله. وعليه يُحْمَل حَالُ الصحابة رضيَ الله عَنْهُمْ. إذْ كَانَ فيهم المتسبِّبونَ، كالصِّديق، والفاروق، وغَيْرهما. والإجماع على تفضيلهما، فَيُحْتَمَلُ ذَلِكَ، على أنَّهُ كَانَ بَعْدَ كَمَالِ حَالِهِمْ. وأيْضاً: مُشاهدَتُهُمْ لنور النبوءة، مَنَعَتْهُمْ مِنَ الرُّكُونِ إلى

شَيْءٍ سِوَاهُ. فنظرة واحدة مِنَ الرَّسول ﷺ، تخرجُهُ مِن عَوَالِمِهِ وعَوَائِدِهِ في سَاعَةٍ واحِدَةٍ، والله ذو الفضل العظيم، ولمَّا كَان راكب البحر على خَطَرٍ، إمَّا أن يَسْلَمَ، وإمَّا أنْ يغرقَ، طلبَ النجاة من الغَرَقِ في بَحْرِ الأوْهَام، أو فِي بَحْرِ الشكُوكِ والخواطِرِ، أو في بَحْر الزَّنْدَقةِ والإلْحَادِ فَقَالَ: «وَانْشُلْنِي»: أيْ خَلِّصْنِي وأنْقِذْنِي «مِنْ أوْحَالِ» جَمْع وَحْلٍ؛ وَهُوَ الخَضْخَاضُ. أي سلمني من وغيض «التَّوْحِيدِ». من إضافة المشبه به إلى المشبّه. أي أنقِذْني من توحيدٍ كَالْخَضْخَاضِ، بأن يَصْحبَه تكدير وتخليط، إمَّا برُؤْية السِّوَى مَعَهُ؛ وهو توحيد العوامّ؛ وهو مكدَّرٌ بالأوْهَام والشكوكِ والخواطِرِ، وإمَّا بِاعْتِقَادِ الحلولِ والاتحادِ. فإنَّ بَعْضَ الجَهَلة، اعتقدوا السِّوَى، وادَّعَوْا حلول الألوهية فيه. وهو مَذْهب النَّصَارى، وبَعْضهم ادَّعَى وجود السِّوَى، لكنَّه اتَّحِدَ وامتزج مَعَ الألوهية. وهو كفر حَرَامٌ. يا عجباً كَيْف يظهر الوجود في الْعَدَمِ؟ أمْ كَيْفَ يثبُت الحادِث مَعَ مَنْ لَهُ وصْفُ القِدَمِ؟

وأهْلُ التحقيق لم يثبتُوا مَعَ الحقِّ سِوَاهُ، ورَأوا الكُلَّ مِنْهُ وإلَيْهِ، فالكُلُّ دُونَ الله، إنْ حَقَّقْتَهُ عدَمٌ على التفصيل والإجمالِ. وإلى ذَلِكَ أشَارَ القائِلُ بقولِهِ:

مَنْ لاَ وُجُودَ لِذَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ ... فَوُجُودُهُ لَوْلاَهُ عَيْنُ مُحَالِ

فإنْ لَمْ تَذُقْ مَا ذَاقَهُ الرِّجَالُ ... فَحُطَّ رَأسَكَ لأقْدَامِ الرِّجَالِ

حَتَّى يسْقُوكَ مِنَ التوحِيدِ خَمْرة صافِيةً زُلَلِ ... وإلاَّ فَسَلِّمْ لأهْلِ الكَمَالِ

وقَدْ شَبَّهُوا رَاكِبَ بَحْر التوحيدِ، بِرَاكِبِ البَحْر الحسِّي، فإن كان صاحبُ السَّفينةِ رئيساً مَاهِراً آوى بِهِ إلى جَبَلِ السنة المحمَّدية، فَكَانَ من الناجحينَ النَّاجِينَ، وإن كَانَ صَاحِبُ السَّفينة جَاهِلاً بالبَحْرِ، آوَىٰ بِهِ إلى جَبَل عَقْلِهِ وَحَدْسِهِ، فالْتَطَمَتْ بِهِ الأمْوَاجُ فكان مِنَ المُغْرَقِينَ. ولمَّا طَلَبَ النَّجاة مِنَ الغَرَقِ فِي بَحْرِ التخليطِ، طَلَبَ الغَرَقَ في بَحْرِ الصَّفاءِ؛ وهي الوحدة الحقيقية. فقال: «وأغْرِقْنِي فِي عَيْنِ»: أيْ في حقيقة «بَحْرِ الْوَحْدَةِ»: أيْ في وسَطِ بَحْر الوحدةِ. والمراد أن يَغيبَ في شهودِ الذَّات وحدهَا. فيكون مُنْهمكاً في الحقيقة، غائباً في وُجوده بوجودِ مشهودِهِ، كَمَا قَالَ الجُنَيْد، رضي الله عَنْهُ:

وُجُودِي أنْ أغيبَ عَنِ الوجودِ ... بِما يبدو وَعَلَيَّ مِنَ الشهودِ

وإن غاب في الحقّ، كان أمره كله به لا بنفسه، ولذلك قال: «حتى لا أرى» إلا بالذاتِ العلية، «ولا أسمع» إلاَّ بها ومنها. كما قال الششتري:

أنَا بِاللَّهِ أنْطِقُ ... ومِنَ اللَّهِ أسْمَعُ

وكما قَالَ في الحديثِ الْقُدْسِي: «**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، ويَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا**» الحديث. وفي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ: «فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُهُ». وإلى تَمَامِهِ أَشَارَ الشَّيْخ بِقَوْلِهِ: «وَلاَ أَجِدَ» فِي بَاطِنِي، مِنْ فَرَحٍ أَوْ حُزْنٍ أو قَبْضٍ أَوْ بَسْطٍ، أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْوُجْدَانِيَّاتِ الْبَاطِنية. «وَلاَ أُحِسّ» مِنْ حَرٍّ أَوْ بَرْدٍ، أَوْ لَيُونَةٍ أَوْ حرُوشةٍ أَوْ غَيْر ذَلِكَ، مِنَ الْمَحْسُوسَاتِ الظَّاهِرة. «إلاَّ بِهَا»: أي بِعَيْنِ بَحْر الْوَحْدة، وعَبَّرَ بِهَا عَنِ الذَّاتِ الْعَالِيَة، فيَكُون فِعْله كُلّه بالله، ومِنَ الله، وإلى الله. وهٰذَا هُوَ الْمُعَبَّر عَنْهُ بِمَقَام الْفَنَاءِ. ويُمْكِنُ أَنْ يُرِيد بِعَيْنِ بَحْرِ الْوَحْدَةِ، مَظهر الإنسَان. فَبَحْرِ الوَحْدةِ؛ هو البَحْرُ المحيط. كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾. وَعَيْنُ ذَلِكَ البَحْر هُوَ وجود الإنسانِ، لأنَّه جَوْهَرة الصَّدَفِ، ولبّ الكائناتِ، فإذَا عَرَفَ الله فيه، وغَرَقَ في بَحْرِهِ، فقد عَرَفَ الله في غَيْرِهِ، مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ، عَرَفَ ربَّهُ، فتأمَّلْ. ثم رَجَع إلى مَقام الفناءِ فقال: «وَاجْعَلِ الْحِجَابَ الأَعْظَمَ». وهو النبيُّ ﷺ. وقد تقدَّمَ مِنْ قولِهِ: «وَحِجَابُك الأعظم»: أيْ واجعل شهودكَ الحجاب الأعْظم. «حَيَاةَ رُوحِي». أي سبب حياتها؛ لأنَّ مَنْ غَرَق في بَحْرِ الوحدة، وأنكَرَ الواسطة، وأثبتَ الحِكْمَةَ، وأبطل الشريعة، فتَزَنْدَقَ وألْحدَ، وماتتْ رُوحُهُ. ومَن أقرَّ الواسطة، وأثبت الحِكْمَةَ، حيَتْ روحهُ، وبقيَتْ منَعَّمةً في حضرة الشهودِ، على نَعْت الهِبَةِ والأدَب، مَعَ المَالِك المعبود، فيكون باطنه يشاهد القدرة، وظاهرهُ يشاهِد الحِكمة. أوْ تقول: باطنهُ حُرية، وظاهرُه عبودية. أوْ تقول: باطنهُ جَذْبٌ، وظاهرُهُ سُلُوكٌ. أوْ تَقُولُ: باطِنُهُ حقيقة. وظَاهره شريعة. فهو الَّذِي تكون رُوحُه حية باقية، لا تفتر ولا تَبِيدُ. حَتَّى ترد يوم المزيد، واعْلَمْ أنَّ إنكارَ الواسِطَة، قَدْ يطرق بعض المريدين عِنْدَ اسْتشرافهمْ على الفَنَاءِ في الذَّاتِ، وعند الجذبة الأولى، لكن لاَ يَدُومُ ذلِكَ، إلاَّ لِمَنْ لَيْسَ لَهُ شيْخ، أوْ خرج عنه قبل التَّرشيد. وأمَّا ما دَامَ في حضَانَةِ الشيخ، فلا بُدَّ أن يُخْرِجَهُ إلَى البقاءِ، كما يُخْرِجُ فصل الشتاءِ بدخول فَصل الرَّبيع، وفَصْل الرَّبِيع، بِدُخُولِ فَصْل الصَّيْف، وهٰكَذَا. والمُرَاد بالواسِطَةِ: القبْضَة النُّورانية التي تكثفَتْ وبَرَزَتْ مِنَ الجَبَرُوت، وسُمِّيَتْ محمَّداً ﷺ. فَمَنْ ألْحَقَها بِأَصْلِهَا، ولم ينظر إلى حِكْمَةِ إظهارها، أنكَرَ الواسطة، وكَانَ ناقصاً أو ساقطاً، ومن نَظَرَ إلى حكمة إظهارها، وأنها ثابتة بإثباتِهِ، مَمْحوَّة بأحدية ذَاتِهِ، أقرَّها بالله، وأقَام بحقوقها، وهي أحكام الشريعة، فلا بُدَّ مِنْ إثباتِهَا وُجُوداً، والغَيْبَة عَنْهَا شهوداً. والواسطة مِنْ عَيْنِ المَوسُوط. فَمَنْ وَقَفَ مَعَ الواسطة، وحُجب عن الموسوط،

كَان جاهِلاً بالله، غَيْر عارف بِهِ، وَمَن حُجِبَ بالواسِطةِ عَنِ المَوسُوطِ، فإنْ كَانَ مَجْذوباً غائباً، كَان ناقصاً، وإن كان صَاحياً كَانَ سَاقطاً. ومَنْ جَمَعَ بَيْنَهُمَا كَان محققاً كَامِلاً، وبالله التوفيق. ولمَّا طَلَبَ حياة رُوحِهِ، بِشهودِ ظاهِرِ الحجابِ الأعْظَم؛ وهو النَّبيّ ﷺ؛ طَلَبَ تصفيتها، حتَّى تنقلِبَ سِرًّا بشهودِ باطِنِهِ عليه السَّلامُ. وهو روحه فقال: «وَرُوحَهُ سِرَّ حَقِيقَتي»: أيْ واجْعل شهود روحِهِ، سبَبَ سِرِّ حقيقتي، أي سَبَبَ انقلابِ روحي سِرًّا، فَحقيقة الإنسان هِيَ رُوحُهُ. والحاصلُ: أن النظر إلى ظَاهِرِهِ عليه الصَّلاة والسَّلامُ يُفيد تحقيق الشريعة؛ وهو سبب حياة الرُّوح. والنَّظر إلى باطِنِهِ عليه السلام، يُفيد تحقيقَ الطريقة، وبها تكون تصفية الرُّوح، حتَّى تكون سِرًّا، بعد أن كَانَتْ نَفْساً، ثم عقْلاً، ثم قلْباً، ثم رُوحاً، فإذا تَهَذَّبَتْ صارت سِرًّا، وأما النظر إلى جُمْلَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلامُ يَعْنِي ظاهره وباطِنِهِ، فَيُفِيدُ تحقيق الحقيقة، وبِهَا يكون تصفية السِّرِّ، وإليه أشار بقولِهِ: «وَحَقِيقَتَهُ وجامعَ عَوَالِمِي»: أيْ واجْعَل شُهُود حقيقتِهِ كلها، بِظاهِرِهَا وبَاطِنِهَا، بجمع عَوَالمي الباطنية؛ وهو العلم والفَهْمُ، والفِكْر والعَقْلُ، والنظر والاعْتِبار، فتكون عوالمي كلها مُنحصِرَةً في الحقيقة المحمَّدية؛ وَهِيَ القبْضة الجَبَروتية، أو المظهر الجَبَرُوتي، مَعَ النظر إلى الجَبَروت الأصلي، كما يأتي بَعْدَهَا. والحاصل: أنَّ ظاهرهُ عليه السلامُ مُلكٌ، وباطنَهُ مَلَكُوتٌ والجمع بَيْنَهُما جَبَروتٌ. فطلب أولاً النظر إلى مُلْكِ ظاهِرِهِ عليه السَّلامُ، لتحقيق شريعته. وطلبَ ثانياً النَّظَرَ إلى مَلَكُوتِ باطِنِهِ عليه السَّلامُ؛ لتحقيق طَريقتِهِ، فتكون سُلَّماً لإشراق نُور حقيقته، وطَلَبَ ثالثاً النَّظَرَ إلى جَبَرُوتِ جُمْلته عليه السَّلامُ، لتكمل حقيقتهُ. وإنْ شِئْتَ قُلْتَ: طَلَبَ أوَّلاً بِقولِهِ: واجْعَلِ الحِجَابَ الأعْظَمَ، حَيَاة رُوحِي ـ الاقْتِدَاءَ بِظَاهِرِهِ. إذْ هُوَ سَبَبٌ لِحَيَاةِ الرُّوح حسًّا ومَعْنًى؛ وهو محلّ التشريع، فيكونُ كَلامُ الشيخ حينئذٍ على حَذْفِ مُضَافَيْنِ. أيْ واجْعَل شُهُودَ ظَاهِرِ الْحِجَاب الأعْظَم، لكِن إذا أُطلِقَ الكَلامُ، إنَّما يَنْصَرِف إلى الظَّاهِرِ، فلا يحتاج إلى تقدير المُضاف الثاني، وطَلَبَ ثالثاً بِقَوْلِهِ: وروحه سِرَّ حقيقتي الاقتداء بِبَاطِنِهِ عليه السَّلامُ. وَهُوَ مَحَلُّ تصفية الرُّوح. إذ كُلُّ مَن نَظَرَ إلى بَاطِنِهِ عليه السَّلامُ ورَأى ما كَان عليه من كَمَالِ الأخلاق، انجَرَّ إلى الاقتداءِ بِهِ عليه السلامُ. وهو عَمَل الطريقة. وطلَبَ ثالثاً بقوْلِهِ: «وحقيقته جَامعَ عَوَالِمِي». الجمعُ بَيْن الاقتداءِ بالظَّاهر والباطِنِ، وبذلكَ تتَنَوَّرُ الحقيقة، ويظهر سِرّها. أو تقول: طلبَ أوَّلاً تحقيق مقام الإسلام، بشهودِ ظَاهِرِهِ عليه السَّلامُ، وطَلَبَ ثانياً بتحقيق مَقام الإيمانِ، شهود باطنه عليه السلامُ. وطلب ثالثاً تحقيق

مقام الإحْسَانِ، بشهودِ حَقيقته عليه السَّلامُ. أو تقولُ: طلبَ أوّلاً شهوده عليه السلامُ مِن جِهَة مُلْكهِ. وثانياً: شهودهُ مِن جهَة ملكوتِهِ. ثالثاً: شهوده من جِهَة جَبَروتِهِ، وهذا أحسن من ذلك إن شاء الله، لأنَّ الشيخ رضي الله عَنْهُ، لمَّا طَلَبَ الرّجوع إلى البقاءِ، بِشهودِ الواسطة، طلب أن يكون جوعه إلَيْهَا بِشهود مُلْكها ومَلَكُوتها وجَبَروتها، ولذلك ضَمَّ جَبَرُوت الواسطة، إلى جَبَروت المَوْسُوطِ، فقال: «بِتَحْقِيقِ الْحَقِّ الأَوَّلِ» الباء للتَّعْدية، والحق الأول: الشهود السَّابق في عَالَم الأرواح يَوْمَ «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ»: أيْ حَقِّقْهُ الآنَ حتى أستحضرهُ، وأسْتَعِينُ بِهِ على دَوَامِ الشهودِ، أو الباء للمعية. والحق الأولُ: هو شهود الرُّبوبية. والاستغراق في الوحدانية. أو البَاءُ للقسَم، والحق الأول هو الله تَعَالَىٰ، إذ هو السَّابق على كل حقٍّ، ومنه كان كل حقٍّ وأعودُ إلى الْمَعْنَىٰ: بتحقيق، أي مع تحقيق الحقِّ الأوَّلِ؛ وهو الجَبَروت الأصْلِي، فالبَاءُ بِمَعْنَىٰ مَعَ كقوله تَعَالَىٰ: ﴿وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ﴾ أي مَعَهُ. فَطَلَبَ أن تكونَ عوالمهُ مُنصرفةً إلى جَبَروتِ الواسطةِ. مع النظر إلى جَبَرُوتِ الموسوطِ؛ الَّذي هو الأصل؛ وهو الحقّ الأولُ. والفَرْق بَيْن جَبَرُوتِ الواسطة، وجَبَرُوت الأصْل أنَّ جَبَرُوت الواسطة، محجوب بالحِكمة، مُغَطًّى برداءِ العِزّ والقهرية، فظاهره حِكمة، وباطنه قدرة، فَمَنْ ضَمَّ جَبرُوتِ الفرْع، إلى جبروتِ الأصْلِ مطلقاً، من غَيْر مُرَاعاةِ الحكمة، ورداءِ القهْرية، وقَعَ في الزَّنْدَقَةِ؛ لإبطالِهِ الأحكَام والحِكْمَةِ، وخَرْقه رداء العِزَّة القهرية. ومَن ضَمَّها مَعَ مُرَاعَاةِ الحِكْمة، ورداء الكِبْرياءِ والعِزَّةِ، كَانَ إماماً كَامِلاً جَامِعاً، يَصْلح للتربية والترقية، جعلنا الله منهم، بِمنِّهِ «يَا أَوَّلُ» قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ. «يَا آخِرُ» بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ. «يَا ظَاهِرُ» فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ. «يَا بَاطِنُ» دُونَ كلِّ شَيْءٍ. هٰكذا فَسَّره النَّبيّ ﷺ في حديث أخرجَهُ مَالِكٌ في المُوَطَّأ. ولَفْظهُ: **«اللَّهُمَّ أنتَ الأوَّلُ، فَلَيسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وأنتَ الآخِرُ فَلَيسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وأنتَ الظَّاهِر فَلَيسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وأنتَ الباطِنُ فَلَيسَ دُونَكَ شَيْءٌ. أقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ»** فَعَبَّرَ بالأوَّلية عَنِ الْقِدَم، وبالآخِرية عَنِ البَقَاءِ، وبالظهورِ عن التجلّي، وبالبطونِ عَنِ الحجاب بالحِكمَةِ وَرَاء القهرية؛ فهو ظَاهرٌ في بطونِهِ، باطِنٌ في ظُهُورِهِ، فاسْمُه الظَّاهر يَمْحُو ظُهُورَ السّوَى ويبطنهُ. إذ لاَ ظَاهِر مَعَهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ، واسمه الباطِن، يقتضي ظهور تجلياته، ليكُونَ بَاطِناً بالنِّسْبَة إلى جِسْمِهَا الظَّاهِر. فَلَوْ بَقِيَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِن البُطُونِ، مَا عُرِف وَلاَ عُبِدَ. وفي الحِكَم: أظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ بأنه الباطن، وَطَوَىٰ كُلَّ شَيْءٍ بأنه الظَّاهر. وقال في آخِر المُنَاجَاة: كَيْفَ تخفَى وأنْتَ الظَّاهر، أمْ كَيْفَ تغيبُ وأنت الرقيب الحَاضِرُ. والحاصل: أنَّ

الْحَصْرَ فِي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ يقتضي انفراده بالظهورِ دُونَ غَيْرِه، لأنَّ التَّقْدِير: هو الأوَّلُ، هو الآخِر، هو الظَّاهر، هو الباطِن دون غَيْرِه. فكُلُّ مَا ظَهَرَ فَهُوَ هُوَ، وكل ما بطن فَهُو هُوَ. أوْ تقول: هو ظَاهر كل ما بطنَ، وباطن كل ما ظَهَرَ من الألوهية، إذ لا شَيْءَ مَعَهُ، أوْ تقول: هو الظَّاهِرُ مِنْ جِهَةِ التعريف، والباطن من جِهَةِ التكثيف. إذ إن كُنْه الرُّبوبية لا يُكَيَّفُ. أوْ تقول: ظاهرٌ بقدرتِهِ، باطِنٌ بحكمتِهِ. أي سبب حِكمتِهِ، فَقَدْ أظهر الحكمة، وأبْطَن القدرة، وإليه أشار بعض العارفين بقولِهِ:

لَقَد ظَهَرَتْ فَلاَ تَخفَىٰ عَلى أَحَدٍ ... إلاَّ عَلَىٰ أكْمَهٍ لا يُبْصِرُ الْقَمَرَا

لَكِنْ بَطَنَتْ بِمَا أظْهَرَتْ مُحْتَجِباً ... وَكَيْفَ يُبْصِرُ مَنْ بِالْعِزَّةِ اسْتَتَرَا

واعْلَمْ أنَّ الحِكْمة عَيْن القُدْرةِ، والقُدْرَة عَيْن الحِكْمَةِ، إذِ الفاعِل واحِدٌ. وسأذكر لكَ شيئاً من بَحْر القُدْرة، وشيئاً من بَحْر الحِكْمَة، ليَظهر لكَ الْفَرْق بَيْنَهُمَا، مع اتّحادِهما مَحَلاً، فنقول: وبالله التوفيق:

بَحْرُ الْقُدْرَةِ، بَحْر زَاخِرٌ، وأمْرهُ قاهِرٌ، لَيْسَ له أوَّلٌ وَلاَ آخِرٌ، يُظهر ويبطن، ويحرك ويسْكن، ويقبض ويدْفع، ويعطي ويمْنع، ويَحْفَظُ ويَرْفَعُ، بِيَدِهِ مَقَادِير الأمور، وعلى قُطْبِ دائرته الأفلاك تدور، أصْل الفروع، وفروع الأصول، وإليه ينتهي الوصول. تطير إليه قلوب المشتاقين، وتعوم في طرف لُجَّتِهِ أرواح السائرين، وتخوض في بَحْرِ لُجّته أسْرَارُ الواصلينَ، وَلاَ تعرف كُنْهَ عظمته قلوبُ العارفين؛ غايَةُ مُنْتَهاهَا الدَّهش والحَيْرَة، ثم العكوف فهي الحَضْرَة.

وأمَّا بَحْرُ الحِكْمَةِ؛ فَهُو أيْضاً: بَحْرٌ زَاخِرٌ، وأمْره ظَاهِرٌ، يُظْهِرُ الأسْبَابَ، ويُسْدِلُ الحجابَ، يَرْبط الأحكام بالْعِلَلِ، ويُقرِّرُ الشَّرَائر والمِلَلَ، يُعْطِي مَا يَبْرُزُ مِنْ عُنْصُرِ الْقُدْرَةِ بِرِدَائِهِ، ويستر ما يَبْدُو مِن أسْرَار الرّبوبية بِعِزِّ كِبْرِيَائِهِ، يُنَوِّرُ الطَّرِيقة، ويصونُ الحقيقة، يُظهر العبودية، ويبطن الحرية، مَنْ وَقفَ معه كَانَ مَحْجُوباً، ومَنْ نَفَذَ مِنْهُ إلى بَحْرِ الْقُدْرَةِ، كَانَ وَاصِلاً مجذوباً، ومَنْ نَظَرَ إلَيْهما معاً، كَانَ كَامِلاً محبوباً، وبالعناية مصحوباً، واعلم أنَّ القُدْرَة والحِكْمَة، كل واحدة تنادي على صَاحِبَتِهَا، بِلِسَانِ حَالِهَا. أمَّا القدرة فتقول للحِكمَة: أنْتِ تَحْتَ قَهْرِي ومشيئتي، لاَ تَفْعَلِي إلاَّ مَا أشاءُ، وَلاَ يَصدُر مِنْكِ إلاَّ مَا أُرِيدُ، فإن أردت خِلافِي رددتك، وإن سَبَقتني أدرَكْتُكِ. وتقول الحكمة للقدرَةِ: أنْتِ تحت حُكْمِي، وعِنْدَ أمْرِي ونَهْيِي، فإنْ عَصَيْتَنِي أدَّبتُكِ، ورُبَّما قتلتُكِ، فإن بَرَزَتِ الْقُدْرَةُ مُوَافِقَة لِلْحِكْمَةِ، كَانَ ذَلِكَ

علامة الجمالِ عاجِلاً أوْ آجِلاً، وإن بَرزَتِ القدرة مخالفة للحِكمَةِ، كَانَ عَلاَمة الجلالِ عاجِلاً أوْ آجِلاً؛ لأنَّ الحِكمَة منوطُ الشريعة، والقدرة محلَّ الحقيقة. فإذا خَلَفَتِ الحقيقةُ الشريعة، كَانَ معصية؛ وهي سبب الجمال، والإنسان دائر بين قُدْرَةٍ وحِكمةٍ، كَمَا هو دائر بيْن حقيقة وشريعة، والله تعالى أعْلَمُ. ثمَّ ذكر الشيخ مطلوبَهُ بالنِّدَاءِ فَقَالَ: «اسْمَعْ نِدَائِي» سَمَاع قبول، أي أجِبْ دعائي. «بِمَا سَمِعْتَ»: أي بِالْوَجْه الَّذِي سَمِعْتَ «بِهِ نِدَاءَ عَبْدِكَ زَكَرِيَّاءَ»؛ وهو سُرْعَة الإجَابة، على وَجْهِ خَرْقِ الْعَادَةِ، فَقَدْ وَهَبَ لَهُ وَلَداً مِنْ صُلْبِهِ، مَعَ يَأْسِ أهْلِهِ، وَكِبَرِ سِنِّهِ، وفيه إشارة لطلب الوارث الرُّوحَاني، فكَأنَّ الشيخ خَافَ أنْ يَنْقَطِعَ الانتفاع بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ، حَيْث لَمْ يترك وارثاً لِسِّرِهِ، فأجَابَ الله دُعَاءَهُ، بأبي الحسَن الشاذلي، فأخَذَ سِرَّهُ، ونشَرَه في المشرقِ والمَغْرِب، فقد انتشرتِ الطَّريقة الشاذلية، انتشار الشَّمْسِ في أُفُقِ السَّمَاءِ، وكثر أتباعها شرقاً وغَرْباً، كل ذلِكَ في صَحِيفَةِ الشيخ رضي الله عَنْهُ، والمَرْءُ فِي مِيزَانِهِ أتباعُهُ. فَاقْدُرْ بِذَلِكَ قَدْرَ النبيّ محمَّد ﷺ، ثم كَمَّلَ مطلوبَهُ فَقَالَ: «وانْصُرْنِي»: أيْ قَوِّنِي وأعِنِّي في الظَّاهر بِكَ، لا بِوَاسِطة شَيْءٍ، لأكون عَبْداً خالصاً لكَ؛ لأنَّ النَّصْرَ إذا كَانَ بوَاسِطَةٍ، رُبَّمَا تميلُ النَّفْسُ إلى مَحَبَّةِ الْوَاسِطَةِ، فَتُحْجَبُ عَنِ الْمَوْسُوطِ، بِخلافِ ما إذا كانَ بِلاَ واسِطة، أوْ غَائِباً عَنْهَا، كَانَ عَبْداً حقيقياً، لانحصار المحبَّة في النَّاصر الحقيقي. «وأيِّدْنِي» أيْ قوِّني في الْبَاطِنِ «بِكَ» لاَ بِرُؤية غَيْرِكَ «لكَ»: أيْ لأكُون عَبْداً خَالِصاً لكَ، فتقرر، أنَّ النَّصْرَ في الظَّاهِرِ، بموافقة الأسْباب، والتَّأييدَ في الباطِنِ، بِرَفْعِ الْحِجَابِ، وَمُوَافقة الصَّوَابِ. وقيل: النَّصْر والتأييد مُتَرَادِفَانِ، والجَمْع بَيْنَهُمَا تَفَنُّن فِي العِبَارَةِ. والتحقيق: الأولُ. ويُوافق النَّصْر: الهِدَاية ويُوافق التأييد: التوفيق. والحاصل: أنَّ النَّصْرَ والهداية والتأييد والتوفيق محلّها القلوب. لكن النصر والهداية، يظهر أكثرهما على الجوارح الظَّاهرة. فتهدي إلى الطهارة والاستقامة، وتقوّي على المُوَاظبة على العبادة. والتأييدُ والتوفيق: يظهر أثرهما على الْعَوَالم الباطنية، فتتخلَّى عن الرَّذائِلِ، وتتحلَّى بأنواعِ الفَضَائِلِ؛ التي هِيَ مَكَارم الأخْلاَقِ، والرِّضى والتسليم، والمحبَّة والمعرفة. وغَيْرَ ذلِكَ مِمَّا تقدَّم ذِكْرهُ. والله تعالى أعْلَمُ. ثم ذكر ثمرةَ النَّصْرِ، والتأييد؛ وهو الجمع على الله، والغَيْبَةُ عَمَّا سواهُ، على سبيل الاستغراقِ والدَّوام فقال: «واجْمَعْ بَيْنِي وبَيْنَكَ» طلبَ دوامَهُ واتِّصَالهُ، وإلاَّ فالجمع حاصِلٌ لهُ، فَهُو كقَوْلِهِ تَعَالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ والجمع: شهود الرّبوبية متصلةً على الدَّوام. والْفَرْقُ: شهود العبودية مُنفصِلةً على الدَّوام. أو تقول: الجمْعُ، شهود القدرة وحدها. والفَرْق:

شهود الحِكْمَة وخدَهَا. فأهْلُ الجَذْبِ والفَنَاءِ: لا يشهدون إلاَّ الجمعَ، وأهْل السلوك قبل رفع الحجاب، لا يشهدونَ إلاَّ الفَرْقَ، وأهْلُ البقاء يشهدون الجمع فِي عَيْنِ الفَرْقِ. والفَرْق في عَيْن الجَمْع، فَهُمْ مَجْمُوعُونَ فِي فَرْقِهِمْ. مَفْرُوقون في جمعهم، لا يحجبُهُمْ جَمْعهم عَن فَرْقِهِمْ، وَلاَ فَرْقهم عن جَمْعِهِمْ، رضي الله عَنْهُمْ.

ولمَّا طلبَ الجمع على الدَّوام، طلبَ نَفْيَ ضِدَّهُ؛ وهو الفَرْق فَقَالَ: «وَحُلْ بَيْنِي وبَيْنَ غَيْرِكَ». شهود غيرك: هو الغفلة عَنِ المعرفة. وإلاَّ فَلاَ غَيْرَ. فكأنه طلب الحيلولَة بَيْنَهُ وبَيْنَ الْغَفْلَة؛ التي تُثْبتُ الغَيرية، أو الحيلولة بَيْنَهُ وبَيْن الْوَهْم، إذْ هو الَّذِي يثبت الغيرية، ولقد سمعت شيْخَنَا البُوزيدي رضي الله عنه كثيراً مَا يقول: «والله مَا حَجَبَ النَّاسَ عَنِ الله إلاَّ الْوَهْمُ، والْوَهْمُ: أمْرٌ عَدَمِيٌّ لَهُ لاَ حَقِيقَةَ لَهُ». يَعْنِي أنَّهم تَوَهَّمُوا وُجُود السِّوَى، وَلاَ وُجُود لِلسِّوى. «الله» هذا التحقيق للجمع الذي طلبَ. وحذف النداء لدلالته على البُعْد، وَلاَ بُعْد مع الجَمْع. وكرَّرَ (الله) ثلاثة، على عَدَدِ الْعَوَالِم الثلاثة، «المُلْكُ، والمَلَكُوتُ، والْجَبَرُوتُ». فكُلُّ مَرَّةٍ يَفْنَى بِهَا عَالَماً، ويَرْتَقِي إلَى آخَرَ. حَتَّى يَسْتَقِرَّ بالثَّالِثَةِ: فِي عَالَم الجَبَرُوت. فإذَا قَالَ: الله أوَّلاً، أفْنَىٰ عَالَم المُلكِ، وإذا قالَها ثانياً، أفْنَىٰ عالَمَ المَلَكُوتِ، وإذا قَالَها ثالثاً، خَافَ الجَبرُوت، واسْتَقَرَّ فِيهِ، وسَمِعْت شَيْخَنَا رضِيَ الله عَنْهُ يَقُول: إذا قال الإنسان: الله، قصَم به الكَوْن كلَّهُ إذا تلقَّاهُ مِنَ الشيْخ. والقَصَمُ: الهَلاَكُ والذَّهابُ. وكَان شيخ شيوخنا سيِّدي علي يقول: ما ظن أحد، أن الكَوْن يذوب إذا ذكر اسْم الله عليه. قلت: وما قاله الشيْخان رضي الله عَنْهُمَا صحيحٌ، فإذا قُلْتَ: الله، وتوجَّهتَ بقلبك إلى الكَوْنِ، من العَرْش إلى الغَرْشِ، ذابَ وتلاشى، ولم يَبْقَ لَهُ أثَرٌ، فَجَزاهما الله عنَّا خَيْراً، ويؤخذ من تِكرار الشيخ لهذا الاسم العظيم، جواز تكرار هذا اللفظ، والاقتصار عَلَيْه في الذِّكر؛ وهو التحقيق، خِلافَ ما ذكر الحطاب، عن عزِّ الدِّين بن عبد السَّلام، ولعَلَّهُ قبل أن يلتقي بالشيخ، وفي المسألة ثلاثة مذاهب: الجواز مطلقاً في البِدَاية والنهاية. والمنع مطلقاً. والتفصيل يجوز في النهاية، ولا يجوز في البداية. والمشهور الأول قال في لطائف المِنَنِ: وكَان الشيخ أبُو العبَّاس المِرْسي رضي الله عَنْهُ يَحُضُّ عليه كثيراً، ويقول: هو سلطان الأسماء. وقال اليوسي: ثمرة هذا الاسم، معرفة الذَّات، وقد تولاَّه أبو الحسَن النوري، فبقي أياماً يقول: الله. الله. الله. لا يفتر. ولا يأكل، ولاَ يشربُ، فَذَكَرَ ذَلِكَ للجُنَيْد، فَقال لَهُ: إن كنت تقوله بنفسكَ فأنت مُشْرِكٌ، وإن كنت تقوله بالله

فلَسْتَ أنْتَ الْقَائِلَ. فَمَا هٰذا التَّوَلُّهُ؟. فَسَكَتَ. وقال: نِعْمَ الطبيبُ أنْتَ. ولمَّا كَان الجمع الحقيقي، الذي تَصحبُهُ النُصْرَة والسُّرور، وَلاَ تَعْتريه غفلةٌ وَلاَ فتورٌ، إنَّما تَكُونُ بعد البَعْثِ والنُّشُورِ، تَلاَ عَلَىٰ رُوحِهِ هٰذِهِ الآية، على مَذْهَب تَفْسِير أهْل الإشارة، تسْلية لَهَا فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أيْ إنَّ الَّذِي فَرَضَ علَيْكَ أحْكَام القرآن، والعمل بِهِ لرَادّك إلى مَعَادٍ عَظِيم، فتتصل بمحبوبك على الدَّوَام، وأمَّا دار الدُّنْيَا فَهِي دَارُ أهْوَالٍ ومَنْزِل فرْقةٍ وَانتقالٍ، لاَ تَسْتَغْرِبْ وُقُوع الأكْدَار، ما دُمْتَ في هٰذه الدَّار. فإنما أبْرزَتْ ما هو مُسْتحِقٌّ وَصْفَهَا، وواجب نَعْتها، ثم ذكر دعاء أهْل الكَهْف، تشبيهاً بِهِم في التَّبتُّل والانْقِطَاع إلى الله، والفِرار مما سواهُ، فقال: «ربَّنَا آتِنَا»: أي أعْطِنَا وامْنَحْنَا «مِنْ لَدُنْكَ»: أي من مسْتبْطِن أُمُورك؛ لأنَّ لَدُنْ، تدلُّ على الاتِّصال والْقُرْبِ أكْثَرَ مِن عِنْدَ. أيْ هَبْ لَنَا من خَزَائِن فَيْضك «رَحْمَةً» عظيمة تضمُّنا وتوحّشنا مِنْ غيرك. «وَهَيِّىءْ» أي واجْعَل؛ «لَنَا مِن أمْرِنَا» كُلِّهِ «رَشداً»: أي صواباً. والمعْنَى، واجْعَلْ أمْرنَا كُلَّه رشداً، وصَوَاباً لمُوَافقتِهِ لمحابّكَ ومَرْضَاتِكَ؛ وهٰذَا يسمَّى عِنْدَ أهْل البَيَان: التَّجريد. ومعْنَاهُ: أنَّهم إذا بالغُوا في الشيءِ، جَرَّدُوا مِنْهُ نوعاً آخَرَ مِنْ جِنْسِهِ. كقولك: لقِيتُ من زَيْدٍ أسَداً. مُبالغةً في شجاعَتِهِ. وقولكَ: لي من فُلاَنٍ صديق حميم. ومنه قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾. وكأنَّه أراد أن يكون أمره كلهُ رشداً. حتى كأنه جرَّد مِنْهُ رشداً آخَرَ. والله تعالى أعْلَمُ. وهٰذَا آخرُ التَّصْلية في النُّسَخ العتيقة، وزَادَ بَعْضُهُمْ: «**إنَّ الله ومَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النبيِّ، يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْه وسَلِّمُوا تَسْلِيماً**». وفي الآية ما يَدُلُّ عَلَىٰ تَعْظِيم أمْرِ الصَّلاَةِ على رسول الله ﷺ. حَيْث بدأ الحق سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ بنَفْسِهِ. وثَنَّى بِمَلاَئِكَةِ قُدْسِهِ. وثلَّث بالمؤمنين من جِنْهِ وإنْسِهِ، فَهُوَ أعْظم مِنَ الأمْرِ بالسُّجُودِ لآدَمَ عَلَيْه السَّلام. «إنَّ الله يرحم آدم فاسْجِدُوا لَهُ». وفي الصلاة عليه، عليه الصلاة والسلام، فوائد كثيرة، ولها ثمرات عديدة، ذكرها ابن فرْحون وغيره، فلا نطيل، بذكرها. فلا يَنْبَغِي لِلفقير أن يُهْمل نَفْسه مِنْهَا. فإن كَانَ سَائِراً خَتَمَ ذِكرهُ بِهَا، وبدأ بِهَا، وإن كَان متمكِّناً اسْتغرقَ أوْقاتهُ فيها بالفِكْرَةِ، ثم امتثل أمْر الخالق فقال: «صَلَّىٰ الله عليه وعلى آلِهِ وصحْبِهِ وسلَّم تَسْلِيماً». وفي وجوب الصَّلاة على النبيّ ﷺ ونَدْبِهَا خِلاف المشهور. والمشهور أنَّها واجبة مرَّة في الْعُمُرِ، ثم يبقى الاستحباب، فلا يهمل نفسه منها إلاَّ محروم، ثم خَتَمَ بذكرِ وَرَدَ عن سيِّدنا عليّ رضي الله عَنْهُ أنه قال: «مَنْ أرَادَ أن يَكْتَالَ بالْمِكيالِ الأوْفَىٰ، فَلْيكُنْ آخِر دعائِهِ: سُبْحَانَ رَبِّكَ ربّ

الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُون، وسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، والْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين». أي تنزيهاً لِرَبِّكَ، رب العِزَّة عمَّا يصفه بِهِ الكَفرة، مِنَ الشريكِ والْوَلدِ. وفيه إشارة إلى عِزِّه ونَصْرِهِ عليه السلامُ، لأنَّ ربّ العِزَّة، لا بُدّ أن يُعِزَّ عَبْدهُ المختصّ بِهِ. وسلامٌ، أي طيب وتحية، وإكرام على المرسلين المختارين لسِرِّ وحْيِهِ، والحَمْدُ لله ربّ العالمين، على نَصْرِ أحبَّائِهِ وجنودِهِ، جَعَلْنا الله من جُنْده المنصور؛ أهْل الخبرة والسرور آمين، وسلام على الْمُرْسَلين، والحمْدُ لله رب العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد خاتم النبيين، وإمام المُرْسلين، وعلى آلِهِ وصحبِهِ وسلَّم.